وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت/ كلية العلوم الاسلامية

قسم الحديث وعلومه

محـــــــاضرات في أصـــــــول التفســـير
المرحلة الثانية/ قسم الحديث وعلومه

جمع وترتيب

م.م شـــــمال رحيم كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــــة

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً، أما بعد:

فإن من المهم في كل فنٍ أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عونا له على فهمه وتخريجه على تلك الأصول، ليكون علمه مبنياً على أسس قوية ودعائم راسخةً ، وقد قيل: من حُرِم الأصول حرم الوصول.

ومن أجل فنون العلم، بل هو أجلها وأشرفها، علم التفسير الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل وقد وضع أهل العلم له أصولاً، كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً، ولعلم الفقه أصولاً.

فقد أوجب الله علي المسلمين تدبر آيات القرآن، فقال تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، ولَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) سورة النساء:٨٢.

وقال تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، أَمْ عَلي قُلُوبٍ أَقْفالُها) سورة محمد:٢٤، وتدبّر القرآن عن طريق إمعان النظر في سوره وآياته، وجمله وكلماته، وتراكيبه ومفرداته، والوقوف أمامها طويلا، ونفاذ النظر إلي مضامينها ومراميها وأغراضها، وملاحظة حقائقها ودقائقها، والأنس والسعادة والاستمتاع بالحياة معها، والاسترواح في ظلالها، وقضاء أسعد الأوقات معها.

والمؤمن يفعل ذلك ليتعرف علي معالم الحياة التي يريد القرآن إيجادها، ومناهج الإصلاح التي يقررها، يفعل ذلك ليعرف ماذا يريد الله منه أن يكون، ليكون، ليعرف الأحكام التي يقررها القرآن، والواجبات التي أوجبها الله عليه في القرآن ليلتزمها، والمنهيات التي نهاه الله عنها في القرآن ليتجنبها.

المؤمن يفعل ذلك ليتعرف علي أسس الدعوة في القرآن، لينطلق من خلال القرآن داعيا إلي الله، ناصحا للمسلمين، ناشرا لهدي القرآن، بشيرا ونذيرا، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، متحديا للباطل، مواجها للكافر، مجاهدا للأعداء، جنديا من جنود القرآن.

وإذا كان هذا المؤمن صاحب علم وفقه، وطالب فائدة وبحث، فإنه في تدبّره للقرآن، ونظره في سوره وآياته، يحقق ما سبق ذكره، ويؤديه ويلتزمه، ويجعل حياته وقفا علي تحقيقه، ثم يضيف إليه أهدافا أخرى سامية، وأغراضا رفيعة عالية.

إنه يتدبر القرآن، ويمعن النظر فيه، ليتعرف علي أسلوبه وبيانه، ويتذوق بلاغته وفصاحته، ويقف علي أسرار ومظاهر إعجازه، وأساليب بيانه، وروعة كلماته وتعبيراته.

إنه يعيش مع بيان القرآن، وأسلوب القرآن، وحديث القرآن، ومفردات القرآن، ومصطلحات القرآن، وموضوعات القرآن، ومعاني القرآن، وحقائق القرآن.

إنه مع القرآن في أوقاته وساعاته، في ليله ونهاره، في مشاعره وتطلعاته، في نظراته وعباراته.

والقرآن الكريم كتاب الله العظيم، وكلامه المعجز، أنفس ما تنفق فيه الأوقات، وتوجّه له النظرات، وتقضي فيه الأعمار، وتدور معه الأفكار.

فعلم أصول التفسير هو علم يبحث فيه عما يختص بالقرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى على خاتم رسله محمد (ﷺ)هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان آيات آيات، وسورا سورا، نورا وضياء وبصائر وحجة وبرهانا، وأمره بإبلاغه للناس كافة وتبيانه لهم جميعا. وذلك البحث من حيث الإنزال وأسبابه ومعرفة متقدمه ومتأخره، ومكيّه ومدنيّه، وحضريّه وسفريه نزولا، وأسمائه وأسماء سوره وعددها وعدد آياته، وغير ذلك مما يجب معرفته لمن يدرس القرآن الكريم وتفسيره العظيم.

وهذا العلم غير (علم تفسير القرآن) وهو العلم بالأصول والقواعد التي يعرف بها معانى آيات الكتاب العزيز.

(وموضوعه): كلام الله تعالى المنزل على الرسول(ﷺ) في مدى ثلاث وعشرين سنة، من حيث المباحث العامة التى يتوقف عليها علم التفسير.

(واستمداده): من القرآن الكريم والسنة النبوية والأخبار الصادقة، والعلوم التي لا بد منها في هذا الشأن.

(وواضعه): الأئمة المجتهدون الراسخون في علم التفسير للقرآن العظيم. وأول من ألف فيه – كما ذكره الجلال السيوطي فى الإتقان – شيخ الإسلام جلال الدين البلقيني صاحب كتاب (مواقع العلوم من مواقع النجوم) بين فيه أنواعه ورتبه وجعله نيفا وخمسين نوعا فتكلم فى كل نوع منها بالمتين من الكلام ثم تبعه فى ذلك وزاد عليه الجلال السيوطي في كتابه (التحبير فى علوم التفسير) ثم لما وقف على كتاب (البرهان فى علوم القرآن) للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي زاد على ما فيه وألف كتابه (الإتقان فى علوم القرآن) وجعله مقدمة لتفسيره الكبير الذى سماه (مجمع البحرين ومطلع البدرين) وذكر أنواعه تفصيلا وأبلغها ثمانين نوعا على سبيل الإدماج، ولو تنوعت لنيفت على الثلاثمائة نوع.

الأصل في اللغة: أسفل الشيء، ويطلق الأصل على مبدأ الشيء، وما يبنى عليه غيره، وعبَّر عنه بعضهم بأنه: ما يفتقر إليه غيره، ولا يفتقر هو إلى غيره، وهذا مستوحى من المعنى اللغوي.

ويقرب من معنى الأصل: القاعدة، وهي: الأساس الذي يبنى عليه البيت.

وأصول التفسير: هي الأسس والمقدمات العلمية التي تعين على فهم التفسير من قواعد ومناهج، وما يتعلق بالمفسر من شروط وآداب.

علاقته بعلوم القرآن هي جزء من علوم القرآن، فالتفسير وأصوله يدخل ضمن علوم القرآن.

الاستنباط في اللغة: الاستنباط من نبطَ وهو استخراج الشيء والسين والتاء في استنبط تدل على بذل الجهد في إعمال العقل الذي يحتاجه المستنبط حال الاستنباط.

الاستنباط اصطلاحاً: هو استخراج ما كان مستتراً عن العيون أو عن معارف القلوب، فإذا أظهرته فأنت له مستنبط، قال تعالى: (لَعلمَهُ الذينَ يَستنبطونَهُ) النساء:٨٣.

قواعد التفسير: هو جزءٌ من أصول التفسير، ويتضمن مجموعة من المبادئ والأحكام التي يستند اليه المفسرون في فهم معاني القرآن الكريم واستنباط احكامه.

غاية وأهمية أصول التفسير

غاية هذا العلم وأهميته هو:

١- ضبط التفسير، بوضع القواعد الصحيحةِ والطرق السليمة والمناهج السديدة.

٢- وضع الشروط والآداب الفريدة للمفسر، كما أنَّ غاية علم التجويد هو النطق الصحيحُ لألفاظ القرآن الكريم، وغاية أصول الفقه هو الاستنباط والفهم الصحيح للفقه،

٣- الفهم الصحيح للتفسير الذي هو بيانٌ لكلام ربِّ العالمين.

٤- المعيار الذي يقاس به الأقوال، ويعرف الصحيح من الضعيف، ولولاها لم يكن لدينا ما نضبط به الأقوال.

٥- بيان جهود العلماء العظيمة التي بذلوها للمحافظة على القرآن الكريم لفظاً ومعنىً.

فضل أصول التفسير ومكانته

لهذا العلم شرف ومكانة عظيمة، فإنَّ شرف العلم بشرف معلومه، وأصول التفسير موضوعه يتعلق بالتفسير الذي هو كلام رب العالمين، وكل علوم الآلة إنما غايتها هو فهه كتاب الله تعالى وسُنة نبيه(ﷺ)، فلابد للمفسر لكتاب الله تعالى أنْ يتحصن بعلومِ الآلة حتى يكون تفسيره موافقاً لمراد الله تعالى، وإلا فإنه يكون ربما آثماً اذا فسرَ كلامَ الله تعالى بدون علمٍ.

نشأة علم التفسير وأصوله

لقد نشأ علم التفسير منذ عصر الرسول (ﷺ) فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسألونه عما يشكل عليهم فهمه من القرآن، مثل:

سؤالهم له عند ما نزل قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِك لَهُمُ الْأَمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ) [الأنعام: ٨٢]، قالوا: وأينا لم يظلم نفسه يا رسول الله؟، فقال لهم مفسرا معنى الظلم، وهو الشرك، أما قرأتم قول الله تعالى: إِنَّ الشِّرْك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان: ١٣].رواه البخاري.

وسؤالهم لما نزل قول الله تعالى: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [النساء: ١٢٣]، فبين لهم ما الذي يجزون به، قال لأبي بكر(ﷺ) لما جاء مشفقا وهو يقول: كيف النجاة بعد هذه الآية؟ فقال له: ألست تمرض؟ أليس يصيبك النصب؟، قال: بلي، قال: فذلك الذي تجزون به . رواه أحمد والحاكم وصححه الذهبي.

وفسر لهم معنى البياض والسواد في آية الصيام: وكلُوا واشْرَبُوا حَتَّي يَتَبَيَّنَ لَكمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ [البقرة: ١٨٧] أصله في البخاري.

وكان الأمر قد التبس عليهم، حتى إن أحدهم كان قد أخذ خيطين حقيقين فوضعهما تحت وسادته يريد أن يجعلهما علامة على الإمساك للصيام فلم ير سودا ولا بياضا، فأخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فقال له: إنك لعريض الوساد، البياض بياض الصبح والسواد سواد الليل . ولم تكن هذه مواقف فردية وإنما حرص الصحابة على فهم القرآن لأنه طريق العمل – كما قلنا – بل ورد عنهم قالوا: «كنا إذا نزلت عشر آيات من كتاب الله تعالى لم نبرحها حتى نحفظها ونفهم معانيها ونعمل بها حتى إذا اكتمل القرآن نزولا كان قد اجتمع لدينا ثلاث: الحفظ والفهم والعمل».

وربما لم يثبت أنَّ النبيَ (ﷺ) ترك تفسيرا كاملا للقرآن، وذلك لأنه لم تكن هناك أسباب داعية إليه، فأصحابه كانوا يتمتعون بذكاء وسلامة فطرة منقطعة النظير، ومع ذلك وضح لهم ما أشكل عليهم، وهم بدورهم بلغوا ما فسره لهم، ووضحوا أيضا من خلال مشاهداتهم لنزول الوحي والأحوال المقترنة به ما وسعهم توضيحه.

ثم جاء عصر التابعين فتكلم الأئمة: منهم الحسن البصري وعكرمة مولي ابن عباس وسعيد بن المسيب، ثم مجاهد وقتادة وأبو إسحاق السبيعي ... وغيرهم.

وكانت مرويات التفسير تروي على أنها أبواب من الحديث، ولم يظهر تفسير كامل استوعب القرآن من فاتحته إلي خاتمته إلا في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري على يد شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري (ت :٣١٠ هـ)، ثم توالي التصنيف في التفسير والتفنن في مذاهبه.

ولا زال إلي الآن يكتب في التفسير ويتوصل إلي جديد من معاني كلام الله تعالى، وسيظل ما دامت السماوات والأرض زاخرا بالمعاني التي يعد تفسيرها تجديدا لإعجازه.

وعن نشأة أصول التفسير: لقد نشأ علم أصول التفسير مقترنا بالتفسير وإن لم يكن تحت هذا المصطلح لكن يلاحظ من تورع الصحابة رضي الله عنهم – عن القول في تفسير القرآن بالهوى وبدون علم: أنهم كانوا يرون أن التفسير لا يتم إلا بضوابط حتى لا يحصل الزلل والخطأ في الفهم.

قال أبو بكر رضي الله عنه: (أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إن أنا قلت في القرآن برأيي). وفي رواية: (لأن تضرب عنقي ولا أقول في القرآن برأيي).

ويعتبر **الإمام الشافعي** – رحمه الله – (ت ٢٠٤ هـ) أول واضع لأصول التفسير في كتابه الرسالة، وإن كان قصد بها التقعيد لأصول الفقه لكنه تعرض في مباحث كثيرة للمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ .. وغير ذلك من المباحث المهمة في أصول التفسير فاعتبرها العلماء باكورة ما كتب في هذا الشأن.

ثم توالت الكتابات في أصول التفسير، لكنها كانت بمثابة مقدمات في كتب التفسير يبدأ بها العلماء، ومن أهم تلك المقدمات مقدمة تفسير الإمام الطبري – رحمه الله – وكذلك القرطبي، ثم ظهرت مقدمة

في أصول التفسير، وكذلك كانت توجد أصول التفسير متناثرة في بطون كتب علوم القرآن، أما في العصر الحاضر فقد كتب غير واحد من العلماء في أصول التفسير جمعا لهذا المتناثر في القرآن تقريبا وتسهيلا على الطلاب.

ومع ذلك يبقي علم أصول التفسير كما قال الدكتور: محمد لطفي الصباغ – من العلوم القابلة للنمو – والتي تحتاج إلي جهد وعناية كبيرة.

أهم المصنفات في أصول التفسير

بعد أن تكلمنا في المبحث السابق عن نشأة علم أصول التفسير، وسبقت الإشارة إلي أسماء بعض المصنفات في هذا العلم، أرى من الضروري أن نقف هنا وقفة مع أهم المصنفات في أصول التفسير لنأخذ فكرة موجزة عن كل مصنف منها بقدر الإمكان:

[١] كتاب (الرسالة): لمؤلفه الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ت ٢٠٤ هـ وهو تمهيد لكتابه الأم في الفقه، وهذه الرسالة القيمة كانت فتحا في علم الأصول في كافة فروعه، حتى تنازعها العلماء، في أصول الفقه، وفي أصول التفسير وفي أصول الحديث (المصطلح) .. كل يعتبرها قاعدته التي عنها يصدر، وبأحكامها ينضبط.

[٢] كتاب (مقدمة في أصول التفسير): لمؤلفه الإمام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم المتوفي ٧٢٨ هـ، وهي رسالة قيمة ذكر فيها أن سبب تأليفه لها أن بعض الإخوان سأله أن يكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية، تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره .. فاستجاب لهذا الطلب وكتب هذه الرسالة.

[٣] كتاب (الفوز الكبير في أصول التفسير): لمؤلفه الشيخ/ ولي الله أحمد قطب الدين الدهلوي الهندي (ت ١١٧٦ هـ) تحدث فيه عن العلوم التي بينها القرآن وعالج فيه كثيرا من مشكلات التفسير، ووضع لها الضوابط ونبه على خطورة الغلو والاجتراء على التفسير بغير علم ..

[٤] كتاب (الإكسير في أصول التفسير): لمؤلفه سليمان بن عبد القوي الطوفي البغدادي (ت ٧١٦ هـ)، تعرض فيه المؤلف لفصول منها: فرق بين التفسير والتأويل ثم تعرض للعلوم التي يحتاج إليها المفسر من نحو وصرف ولغة وقراءات وفقه وأصول وتاريخ وطب وحساب ونجوم وهندسة وغيره ثم أكثر من الكلام على علمي المعاني والبيان حتى استغرق بقية الكتاب.

[٥] المقدمات في كتب التفسير: ومن أهمها مقدمة تفسير الطبري، ومقدمة تفسير القرطبي، ومقدمة تفسير ابن كثير، حيث فيها ذكر لكثير من أصول التفسير وشروط المفسر وآدابه والعلوم التي تلزمه، والتحذير من الإسرائيليات في التفسير وكذلك من الشطط في الفهم .. وغير ذلك.

وتعتبر مقدمة تفسير الطبري من أهم وأجود ما كتب في أصول التفسير.

[٦] بحوث في أصول التفسير: لمؤلفه الدكتور محمد لطفي الصباغ.

[٧] أصول التفسير وقواعده: لمؤلفه الشيخ خالد عبد الرحمن العك.

[٨] القواعد الحسان في تفسير القرآن: للشيخ عبد الرحمن السعدي.

التفسير والتأويل مفهومه وحكمه

والتفسير في اللغة: مأخوذ من مادة (فَسَرَ)، وهي تدل على ظهور الشيء وبيانه، ومنه الكشف عن المعنى الغامض.

وللتفسير في الاصطلاح تعاريف، ومن أوضحها: بيان كلام الله المعجز المنزل على محمد (ﷺ).

وعرفه الزركشي: هو علمٌ يُفهم به كتابُ اللهِ تعالى المنزل على نبيه محمد (ﷺ) وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه.

التأويل في اللغة: هو الرجوع الى الشيء، يقال: آل الشيء يؤولُ أولاً ومآلاً اذا رجع.

التأويل في الاصطلاح: صرف اللفظ عن الاحتمال الظاهر إلي احتمال مرجوح به لاعتضاده بدليل يصير به اغلب الظن من المعنى الذي دل عليه الظاهر.

المُفسِّر: هو الذي يقوم بتفسير وبيان معاني آيات القرآن الكريم، وتوضيح أحكامها، مع تمكنه من العلوم التي يحتاجها في التفسير.

الشروط التي يجب توفرها في المُفسِّر

١- **صحة الاعتقاد:** فإن العقيدة لها أثرها في نفس صاحبها، وكثيرًا ما تحمل ذويها على تحريف النصوص والخيانة في نقل الأخبار، فإذا صنف أحدهم كتابًا في التفسير أوَّل الآيات التي تخالف عقيدته، وحمَّلها باطل مذهبه، ليصد الناس عن اتباع السلف، ولزوم طريق الهدى.

٢- **التجرد عن الهوى:** فالأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذهبهم، فيغرون الناس بلين الكلام ولحن البيان، كدأب طوائف القدرية والمعتزلة ونحوهم من غلاة المذاهب.

٣- **أن يبدأ أولًا بتفسير القرآن بالقرآن،** فما أُجمل منه في موضع فإنه قد فُصل في موضع آخر، وما اختُصر منه في مكان فإنه قد بُسط في مكان آخر.

٤- **أن يطلب التفسير من السُّنَّة** فإنها شارحة للقرآن موضحة له، وقد ذكر القرآن أن أحكام رسول الله (ﷺ) إنما تصدر منه عن طريق الله: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}.

٥- فإذا لم يجد التفسير من السُّنَّة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح.

٦- فإذا لم يجد التفسير في القرآن ولا في السُّنَّة ولا في أقوال الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، والربيع بن أنس، وقتادة والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، والمعتمد في ذلك كله النقل الصحيح، ولهذا قال الإمام أحمد: "ثلاث كتب لا أصل لها: المغازي، والملاحم، والتفسير" يعني بهذا: التفسير الذي لا يعتمد على الروايات الصحيحة في النقل.

٧- **العلم باللغة العربية وفروعها:** فإن القرآن نزل بلسان عربي، ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالِمًا بلغات العرب".

٨- العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن، كعلم القراءات؛ لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن ويترجح بعض وجوه الاحتمال على بعض، وعلم التوحيد، حتى لا يؤول آيات الكتاب التي في حق الله وصفاته تأويلًا يتجاوز به الحق، وعلم الأصول، وأصول التفسير خاصة مع التعمق في أبوابه التي لا يتضح المعنى ولا يستقيم المراد بدونها، كمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، ونحو ذلك.

٩- دقة الفهم التي تمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة.

الفرق بين التفسير والتأويل

التأويل عند المتقدمين له معنيان

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين، وهذا هو ما عناه مجاهد من قوله: "إن العلماء يعلمون تأويله" يعنى القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبري بقوله في تفسيره: "القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا" وبقوله: "اختلف أهل التأويل فى هذه الآية"، ونحو ذلك، فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً، كان تأويله نفس الشيء المخْبَر به، وبين هذا المعنى والذى قبله فرق ظاهر، فالذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير، والشرح، والإيضاح، ويكون وجود التأويل في القلب، واللسان، وله الوجود الذهني واللفظي والرسمي، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج، سواء أكانت ماضية أم مستقبلة، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا هو لغة القرآن التي نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني.

التأويل عند المتأخرين من المتفقهة، والمتكلمة

التأويل عند هؤلاء جميعاً: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف، فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث – أو هذا النص – مُؤوَّل أو محمول على كذا. قال الآخر: هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل. وعلى هذا فالمتأوِّل مطالَب بأمرين:

الأمر الأول: أن يبيّن احتمال اللفظ للمعنى الذى حمله عليه وادَّعى أنه المراد.

الأمر الثاني: أن يبيّن الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلاً فاسداً، أو تلاعباً بالنصوص.

قال في جمع الجوامع وشرحه: "التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حُمِل عليه لدليل فصحيح، أو لما يُظَن دليلاً فى الواقع ففاسد، أو لا شيء فلعب لا تأويل".

الفرق بين التفسير والتأويل:

١- قال أبو عبيدة وطائفة معه: "التفسير والتأويل بمعنى واحد" فهما مترادفان، وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

٢ – قال الراغب الأصفهاني: "التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يُستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا. والتأويل يُستعمل أكثره في الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها. والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ. والتأويل أكثره يستعمل في الجمل.

٣– قال الماتريدي: "التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي، وهو المنهى عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله"، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٤ – قال أبو طالب الثعلبي: "التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير "الصراط" بالطريق، و "الصَيِّب" بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد.

– قال البغوي ووافقه الكواشي: "التأويل هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسُّنَّة من طريق الاستنباط. والتفسير هو الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها" بتصرف. وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٦ : "التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية"، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٧ – التفسير هو بيان المعاني التي تُستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعاني التي تُستفاد بطريق الإشارة. فالنسبة بينهما التباين، وهذا هو المشهور عند المتأخرين، وقد نبَّه إلي هذا الرأي الأخير العلامة الألوسي في مقدمة تفسيره.

والأقرب من هذه الأقوال والله أعلم: هو أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله(ﷺ)، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحى وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله (ﷺ)، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل.. فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل.

حكم تعلم التفسير

أنزل الله كتابه ليتدبره الناس، قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص: ٢٩]، ونعى على من لم يتدبره، فقال: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]، والتدبر يكون بعد تفسير ألفاظه وفهم معانيه، ولذا فالمسلم مأمور بهذا الفهم والتفسير وتعلُّم التفسير **(واجب)** على الأمة من حيث العموم، فلا يجوز أن تخلو الأمة من عالم بالتفسير يعلّم الأمة معاني كلام ربها.

أما الأفراد فعلى كلٍّ منهم واجبٌ منه، وهو ما يقيمون به فرائضهم، ويعرفون به ربهم، أي هو **(فرض كفائي)** على الأفراد، إن قام به من يفي به الغرض سقط الإثم عن الباقين.

للتفسير أقسام عدة، وكل قسم مبني على اعتبار، ويكون هذا الاعتبار بالنظر إلى جهة من جهات التفسير.

ويمكن تقسيم هذه الاعتبارات إلى ما يلي:

١ – باعتبار معرفة الناس له.

٢ – باعتبار طريق الوصول إليه.

٣ – باعتبار أساليبه.

٤ – باعتبار اتجاهات المفسرين فيه.

أولاً: باعتبار معرفة الناس له:

قسَّم حبر الأمة ابن عباس التفسير، وجعله أربعة أوجه:

١ – وجه تعرفه العرب من كلامها.

٢ – وتفسير لا يعذر أحد بجهله.

٣ – وتفسير يعلمه العلماء.

٤ – وتفسير لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه فقد كذب.

تفصيل هذه الأوجه وبناء الحكم عليها:

الوجه الأول: ما تعرفه العرب من كلامها:

يشمل هذا القسم ألفاظ القرآن، وأساليبه في الخطاب، وذلك لأنه نزل بلغتهم وعلى طرائقهم في الكلام.

وهذه الألفاظ والأساليب معلومةٌ لديهم غير خافية، وإن كان قد يخفى على أفراد منهم شيء منها، وذلك لغرابتها على مسمعه، أو لعدم اعتياده عليها في لغة قومه، كما خفي على ابن عباس بعض معاني مفرداته؛ كلفظ «فاطر»، وغيرها.

ولذا تجد في تفاسير السلف تفسيرهم اللغوي لمعنى الصمد، والكفؤ، والفلق، والغاسق ... إلخ.

والأساليب لما كانت على سَنَنِهم في الكلام لم يَخْفَ عليهم المراد بها، فيعلمون من قوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان: ٤٩]، أن هذا الخطاب خطاب امتهان وتهكم، وإن كانت ألفاظه مما يستعمل في المدح، وذلك لأن السياق يدل على معنى الامتهان.

حكمه: وهذا الوجه من فروض الكفاية، إذ لا يجب على كل مسلم معرفة جميع المعاني اللغوية والأساليب الكلامية الواردة في القرآن،وقد يرتقي إلى الواجب إذا توقف عمل الواجب على هذه المعرفة.

الوجه الثاني؛ ما لا يعذر أحد بجهله:

وهذا يشمل الأمر بالفرائض، والنهي عن المحارم، وأصول الأخلاق والعقائد.

فقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: ١١٠]، وقوله: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [آل عمران: ٩٧]، وقوله: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [البقرة: ١٨٣] لا يعذر أحد بجهل مثل هذه الخطابات وهو يقرأ القرآن، وكذا يدخل فيه ما جاء من أمر بالصدق والأمانة والنهي عن الكذب والخيانة، وعن إتيان الفواحش، وغير هذه من الأوامر والنواهي المتعلقة بالأخلاق.

ويدخل فيه ما يتعلق بالعقائد؛ كقوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ} [محمد: ١٩]، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وغيرها من الأوامر والنواهي المتعلقة بالتوحيد.

حكمه: هذه كلها داخلة ضمن الواجب الذي يجب على المسلم تعلمه من التفسير.

الوجه الثالث؛ ما تعلمه العلماء:

ومما يشمله هذا القسم، ما تشابه منه على عامة الناس، وما يستنبط منه من فوائد وأحكام.

حكمه: وهذا القسم من فروض الكفاية.

الوجه الرابع؛ ما لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه فقد كذب:

ويشمل هذا حقائق المغيبات، ووقت وقوعها.

فالدابة التي تخرج في آخر الزمان لا يعلم كيفها وحقيقتها إلا الله، ولا يعلم وقت خروجها إلا الله، وهكذا سائر الغيبيات.

حكمه: وهذا النوع غير واجب على أحد، بل من تجشم تفسيره فقد أثمَ وافترى على الله وادعى علماً لا يعلمه إلا الله سبحانه.

أنواع طرق التفسير

١ – التفسير التحليلي.

٢ – التفسير الإجمالي.

٣ – التفسير المقارن .

٤ – التفسير الموضوعي.

٥– التفسير الإشاري.

٦– التفسير الفقهي.

٧– التفسير اللغوي.

٨– التفسير العلمي.

وإليك تفصيلاً موجزاً عن هذه الأقسام:

أولاً: التفسير التحليلي:

هذا القسم هو الغالب على التفاسير، ويعمد المفسر بهذا الأسلوب إلى التحليل في الآية، فيبين سبب نزولها، وبيان غريبها، وإعراب مشكلها، وبيان مجملها ... إلخ، ومن أمثلته: تفسير ابن عطية والآلوسي والشوكاني وغيرهم.

ثانياً: التفسير الإجمالي:

يعمد المفسر بهذا الأسلوب إلى بيان المعنى العام للآية دون التعرض للتفاصيل؛ كالإعراب واللغة والبلاغة والفوائد وغيرها.

ومن أمثلته: تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، وتفسير المكي الناصري، وتجده [١٩] كذلك في تفسير المراغي وأبي بكر الجزائري تحت عنوان «المعنى الإجمالي».

ثالثاً: التفسير المقارن:

يعمد المفسر بهذا الأسلوب إلى قولين في التفسير، ويقارن بينهما مع ترجيح ما يراه راجحاً ، ومن أمثلته: تفسير ابن جرير الطبري، وغيره ممن يذكر أقوال المفسرين ويرجح بعضها على بعض.

ومنه ما يقوم به . الآن . أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري من عرضه في الإذاعة لتفسيره المسمى «تفسير التفاسير».

رابعاً: التفسير الموضوعي:

يعتمد هذا الأسلوب على دراسة لفظة، أو جملة، أو موضوع في القرآن، وهو أقسام:

١ – أن يكون عرض الموضوع من خلال القرآن كله؛ كموضوع (صفات عباد الرحمن في القرآن).

٢ – أن يكون عرض الموضوع من خلال سورة؛ كموضوع (الأخلاق الاجتماعية في سورة الحُجرات).

٣ – أن يستعرض المفسر لفظة أو جملة قرآنية، ويبين معانيها في القرآن؛ كلفظة (الأمة في القرآن)، وجملة {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [المائدة: ٥٢] في القرآن الكريم.

خامساً: التفسير الإشاري

هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا. وقد اختلف العلماء في التفسير المذكور فمنهم من أجازه ومنهم من منعه وإليك شيئا من أقوال العلماء لتعرف وجه الحق في ذلك:

قال الزركشي في البرهان كلام الصوفية في تفسير القرآن قيل إنه ليس بتفسير وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) إن المراد النفس يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هي القرب وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه.

وأهم كتب التفسير الإشاري أربعة: تفسير النيسابوري وتفسير الألوسي وتفسير التستري وتفسير محيي الدين بن عربي.

سادساً: التفسير الفقهي:

هو تفسير آيات الأحكام، واستنباط القواعد منها والأصول، واكتشاف الثروة التشريعية لبيان أحكام الله– تعالى– التى كلف عباده الامتثال لها، ومدى حاجة جميع الأزمنة والأمكنة إلى هذه الثروة التشريعية، وأهم الكتب: جامع أحكام القرآن للقرطبي المالكي، وكتب أحكام القرآن للجصاص الحنفي، والكيا هراسي الشافعي.

سابعاً: التفسير اللغوي:

هو المنهج الذي يعتمد على استخلاص معاني الآيات الكريمة عن طريق اللغة ؛ حيث يرون في النص القرآني إضافة الى كونه نصا دينيا هو نص أدبي ، معجز في لغته وبلاغته وفصاحته، ومن كتب التفسير اللغوي: معاني القرآن للفراء والزجاج، ومن المعاصرين الاعراب المفصل لكتاب الله المرتل لبهجت عبد الواحد .

ثامناً: التفسير العلمي:

هو المنهج الذي يعتمد على النظريات العلمية الحديثة في تفسير آيات القرآن الكريم، كدليل على أعجاز القرآن الكريم، سواء كانت آيات كونية أو نفسية، ومن أهم الكتب في هذا المجال: الإعجاز العلمي الى أين، للدكتور زغلول النجار، والتفسير العلمي بين النظريات والتطبيق لهند شلبي.

مصادر علم التفسير

إن لكل نهر نبعه وروافده التي يستمد منها ماءه فيجري، ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله – عز وجل – الذي تنفد الأقلام ولو كانت كل ما في الأرض من شجر، والمحابر ولو كانت بحارا يمد بعضها بعضا قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ والْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكيمٌ) [لقمان: ٢٧].

لهذا كان التفسير بحراً عظيماً ولا بد له من مصادر يستمد منها مادته، وقد تكلم العلماء عن مصادره، ويعنون بها **العلوم اللازمة للمفسر عند تفسير القرآن الكريم** ومن كلامهم نستطيع أن نقول إن مصادر التفسير كالآتي:

[١] اللغة والاشتقاق: ونعني بذلك معرفة الألفاظ القرآنية واستعمالاتها في لغة العرب وهذا ما يسمي بعلم أصول اللغة، فها هو ابن عباس رضي الله عنهما برغم فصاحته إلا أنه يقرر أنه توقف في تفسير بعض الآيات حتى عرفها من كلام العرب، يقول: (ما كنت أعرف معنى فاطر حتى سمعت رجلين يختصمان في بئر وكل منهما يقول أنا فطرتها أي أنشأتها) ومما يتصل بمعرفة الألفاظ ومد لولاتها في الاستعمال: معرفة المترادف والمشترك وغير ذلك فهذا مهم جدا للوصول إلي الفهم الدقيق.

[٢] النحو والصرف: لأن فهم المعنى يتوقف في كثير من الأحيان على معرفة الإعراب ويقع الذين يجهلون هذين العلمين في أغلاط شنيعة إذا تصدوا للتفسير، كما حدث لبعضهم في تفسير قوله تعالى: يَوْمَ نَدْعُوا كلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فقد فهم أن (إمام) جمع (أمّ) وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، قال الزمخشري: (وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف فإن (أما) لا تجمع على (إمام) .

[٣] الأدب وعلوم البلاغة: وهذه العلوم تعين المفسر وتغذي التفسير بأوجه الإعجاز البيانية، والجمال الفني في التعبيرات القرآنية، وذوق هذه الأشياء لا يتأني إلا من الاشتغال بالأدب وعلوم البلاغة (بيانها وبديعها ومعانيها).

قال صاحب الكشاف – رحمه الله –: «من حق مفسر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز، أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليما من القادح».

[٤] علم الآثار: ونعني به المأثور من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن كلام الصحابة والتابعين وأئمة التفسير في القرآن وهذا المأثور أحق ما يستمد منه تفسير القرآن بعد تفسير القرآن بالقرآن.

[٥] علم القراءات: ونعني تنوع القراءات لأنه يفيد معان متجددة في الغالب، فيستمد التفسير من اختلاف القراءات مادة ثرية كلما قلب المفسر في أوجهها المختلفة، مع مراعاة ثبوتها عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٦] علم أصول الفقه: لأن المفسر لا يخلو من التعرض لتفسير الآيات القرآنية التي ذكر فيها بعض الأحكام الشرعية، فكان لا بدّ من رجوعه إلي أصول الفقه لإتقان عملية الاستنباط للأحكام الشرعية من الآيات.

[٧] علم العقيدة: فالقرآن الكريم قد أصّل بناء العقيدة السليمة ونقاها مما شابها من أدران الشرك، فالمفسر بدوره يتعرض لشرح الأمور العقدية التي تضمنتها الآيات القرآنية من التدليل على ثبوت الألوهية والربوبية والرسالات، والبعث والجزاء، والجنة والنار، ومناقشة عقائد المشركين الفاسدة.

[٨] علم التاريخ: لأن القرآن الكريم قد تعرض لقصص الأمم السابقة، ووجه الهدف نحو استخلاص العبرة والعظة منها، وقصص القرآن أحسن القصص كما قال تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْك أَحْسَنَ الْقَصَصِ [يوسف: ٣]، (وذلك لامتيازه بالصدق والواقعية، وللقصة تأثير خطير على القارئ والسامع مهما كان مستواه الثقافي، فالإنسان يجد – أحيانا – نفسه في تلك القصة، ويتذكر مواقف تعرض لها ربما تشبه هذا القصص، فتنغمس روحه في بحور من الراحة والسعادة، وقد يكون في القصة ما يوحي بحل إشكال وقف أمامه زمنا طويلا عاجزا لا يدري ما يصنع.

[٩] العلوم الكونية: ونعني بها العلوم التي تعنى بدراسة الكون من طب للإنسان والحيوان أو للظواهر الطبيعية كالسحاب والرعد والبرق والمطر .. أو لطبقات الأرض والجبال ومكوناتها .. أو غير ذلك، يستعين بها المفسر في شرح الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر شيء من تلك الظواهر الكونية وما أكثرها في القرآن الكريم.

وبالجملة فكل علم محترم شرعاً يعتبرُ مِن مصادر علمِ التفسير التي يُستمد منها مادته، ولكن يراعي أنه يجب على المفسر وهو يستمد من تلك العلوم أن لا يكثر من تفريع هذه العلوم داخل التفسير، فهي موجودة في مظانها ومصنفاتها، ويحسن به أن يأخذ منها فقط ما يعينه على توضيح المعنى المراد.

نشأةُ التفسير

التفسير في عصر النبوة:

أنزل الله تعالى كتابه الكريم بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامهم، وأمر نبيه(ﷺ) أن يبلغه للناس، قال تعالى:(يأَيها الرسولُ بلغ ما أنزل إليك من ربك) المائدة:٦٧، وحدد وظيفة نبيه(ﷺ) ببيان ما أُنزل اليه للناس، قال تعالى:(وأنزلنا إليك الذكرَ لتبين للنَّاس ما نُزِّلَ اليهم) النحل:٤٤، وقد قم النبي(ﷺ) بأداء أمانته على أكمل وجه وأتمه، فبلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، فبين مجمل القرآن وفسر ما أشكل عليهم ، فهو (ﷺ) أول مفسرٍ لكتاب الله تعالى.

واختلف الدارسون في مقدار التفسير الذي بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة:

١-فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله(ﷺ) بيّن لأصحابه كل معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظ.

فمن أدلتهم:

أولا: قوله تعالى (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

والبيان في الآية يتناول بيان معاني القرآن، كما يتناول بيان ألفاظه، وقد بين الرسول ألفاظه كلها، فلا بدّ أن يكون قد بيّن كل معانيه أيضا، وإلا كان مقصرا في البيان الذي كلف به من الله.

ثانيا: ما روي عن أبي عبد الرحمن السلمي (ت: ٧٢ هـ-) أنه قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي صلى (ﷺ) عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا.

ولهذا كانوا يبقون مدة طويلة في حفظ السورة، وقد ذكر الإمام مالك في الموطأ: أن ابن عمر أقام على حفظ البقرة ثماني سنوات، والذي حمل الصحابة على هذا، ما جاء في كتاب الله تعالى من قوله:

(كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن.

وقوله: (إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، والقرآن أولى بذلك من غيره.

فهذه الآثار تدل على أن الصحابة تعلّموا من رسول الله(ﷺ) معاني القرآن كلها، كما تعلموا ألفاظه.

ثالثا: قالوا إن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب أو الحساب ولا يشرحوه، فكيف بكتاب الله الذي فيه عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة؟

رابعا: ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة عن عمر رضي الله عنه أنه قال: من آخر ما نزل آية الربا، وأن رسول الله (ﷺ) قبض قبل أن يفسرها: وهذا يدل بالفحوى على أنه يفسر لهم كل ما نزل، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية، لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه.

٢- ومنهم من ذهب إلى القول: بأن رسول الله(ﷺ) لم يبيّن لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل.

فمن أدلتهم:

أولا: ما أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسّر شيئا من القرآن إلّا آيا بعدد، علّمه إياهن جبريل .

ثانيا: قالوا إن بيان النبي لكل معاني القرآن متعذر ولا يمكن ذلك إلا في آي قلائل، والعلم بالمراد يستنبط بأمارات ودلائل، ولم يأمر الله نبيّه بالتنصيص على المراد في جميع آياته لأجل أن يتفكر عباده في كتابه .

ثالثا: قالوا: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه كل معاني القرآن، لما كان لتخصيصه ابن عباس رضي الله عنهما بالدعاء له بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فائدة، لأنه يلزم من بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كل معاني القرآن استواؤهم في معرفة تأويله، ولا معنى لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء

والرأي الذي تميل إليه النفس هو أن نتوسط بين الرأيين فنقول: إن الرسول صلى الله عليه وسلم بيّن الكثير من معاني القرآن لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معاني القرآن، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما صرح بذلك ابن عباس(ﷺ) بقوله:

التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء من كلامها، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

وبدهي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب، لأن القرآن نزل بلغتهم، ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذي لا يعذر أحد بجهله، لأنه لا يخفى على أحد، ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وحقيقة الروح، وغير ذلك من كل ما يجري مجرى الغيوب التي لم يطلع الله عليها نبيّه، وإنما فسّر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المغيبات التي أخفاها الله عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم، وفسّر لهم أيضا كثيرا مما يندرج تحت القسم الثالث.

بيان النبي(ﷺ) لبعض المبهمات

الأول: (بيان مجمل) بيانه عليه الصلاة والسلام لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وبيانه لمقادير الزكاة، وأوقاتها، وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني مناسككم» وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي» ،وقد روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدّد عليه الصلاة، والزكاة، ونحو ذلك، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله تعالى مفسّرا؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنّة تفسر هذا.

الثاني:(توضيح مشكل) تفسيره صلى الله عليه وسلم للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) بأنه بياض النهار والسواد الليل.

الثالث:(تخصيص العام) تخصيصه صلى الله عليه وسلم الظلم في قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ) بالشرك، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم، حتى قال: وأيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس بذلك، إنما هو الشّرك».

الرابع:(تقييد المطلق) تقييده اليد في قوله تعالى: (فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما) باليمنى.

أهم مصادر التفسير النبوي هي:

١ – كتب الأحاديث الشريفة: ذلك لأن علماء الحديث كانوا يجمعون الأحاديث النبوية كلها، ولا يفرقون بين الأحاديث التي تتحدث عن التفسير عن الأحاديث العامة.

٢ – كتب التفسير: وخاصة المشهورة منها، وأهمها: تفسير الطبري، وبحر العلوم للسمرقندي، ومعالم التنزيل للبغوي، وزاد المسير لابن الجوزي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، والتفسير الكبير للرازي، وأمثالهم.

٣ – كتب التاريخ والسير والمغازي: ولعل أهمها السيرة النبوية لابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الأمم والملوك للطبري وغيرهم.

٤ – كتب علوم القرآن وأسباب النزول: مثل كتاب البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، وأسباب النزول للسيوطي، وأسباب نزول القرآن للواحدي.

طرق تفسير القرآن الكريم

أولاً– تفسير القرآن بالقرآن:

هو أعلى أنواع التفسير وأصحها؛ لأنه توضيح لكلام الله بكلام الله؛ فإن القرآن الكريم قد يجمل في موضع ويفصل في موضع آخر ، ويعمم في موضع ويخص في موضع آخر ، ويطلق الحكم في موضع ويقيده في موضع آخر ونحو ذلك وأول من اعتنى بهذا النوع من التفسير هو النبي – صلى الله عليه وسلم –؛ فقد فسر ما أشكل على الصحابة، ويعتبر القرآن أول مصدر لبيان تفسيره؛ لأن المتكلم به هو أولى من يوضّح مراده بكلامه؛ فإذا تبيّن مراده به منه ، فإنه لا يُعدل عنه إلى غيره.

ولذا عدّه بعض العلماء أول طريق من طرق تفسير القرآن ، وقال آخر: إنه من أبلغ التفاسير، وإنما يُرْجَع إلى القرآن لبيان القرآن، فمن ذلك:

المثال الأول: قوله تعالى:(وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُون لِمَن فِي الأَرْضِ) [الشورى: ٥] ، الاستغفار مطلق لأهل الأرض وقد قيّد هذا الإطلاق بالمؤمنين في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) [غافر: ٧].

المثال الثاني: قوله تعالى: (فتلقى آدمُ مِن رَّبه كلماتٍ) سورة البقرة:٣٧، فُسرَّ بقوله تعالى:(قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف:٢٣.

حُجّيّةُ تَفْسير القرآن بالقرآن:

كلما كان تفسير القرآن بالقرآن صحيحاً ، فإنه يكون أبلغ التفاسير ، ولذا: فإن ورُود تفسير القرآن بالقرآن عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أبلغ من وروده عن غيره؛ لأن ما صح مما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم– مَحَلّهُ القبول.

بيد أن قبوله لم يكن لأنه تفسير قرآن بقرآن ، بل لأن المفسّر به هو النبي –صلى الله عليه وسلم–.

ومن أمثلة تفسيره القرآن بالقرآن ما رواه ابن مسعود: أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (مفاتح الغيب(٢٦) خمسٌ ، ((إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) [لقمان: ٣٤](٢٦).

أما ورود تفسير القرآن بالقرآن عن غير الرسول فإنه قد قيل باجتهاد المفسر ، والاجتهاد معرض للخطأ.

وبهذا لا يمكن القول بحجيّة تفسير القرآن بالقرآن مطلقاً ، بحيث يجب قبوله ممن هو دون النبي – صلى الله عليه وسلم– ، بل هو مقيد بأن يكون ضمن الأنواع التي يجب الأخذ بها في التفسير.

ومن هنا فإن تصنيف (تفسير القرآن بالقرآن) ، في أحدهما يكون بالنظر إلى القائل به أولاً ، لا إلى طريقة وصوله إلى ما بعد القائل؛ لأن ذلك طريقهُ الأثر.

وتفسير القرآن بالقرآن ينسب إلى الذي فسّر به ، فالمفَسّر هو الذي عَمَدَ . اجتهاداً منه . إلى الربط بين آية وآية ، وجعل إحداهما تفسر الأخرى، وبهذا فإن طريق الوصول إليه هو الرأي والاستنباط ، وعليه فإنه لا يلزم قبول كل قول يرى أن هذه الآية تفسر هذه الآية؛ لأن هذا الاجتهاد قد يكون غير صواب.

كما أنه إذا ورد تفسير القرآن بالقرآن عن مفسر مشهور معتمد عليه فإنه يدلّ على علو ذلك الاجتهاد؛ لأنه من ذلك المفسر، فورود التفسير به عن عمر بن الخطاب أقوى من وروده عن من بعده من التابعين وغيرهم ، وهكذا.

وأخيراً:

فإن كون تفسير القرآن بالقرآن من التفسير بالرأي ، لا يعني صعوبة الوصول إليه في كل حالٍ ، بل قد يوجد من الآيات ما تفسّر غيرها . ولا يكاد يختلف في تفسيرها اثنان ، مثل تفسير »الطارق« في قوله (تعالى): ((وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)) [الطارق: ١] بأنه يُفسر بقوله (تعالى): ((النَّجْمُ الثَّاقِبُ)) [الطارق: ٣] ، ومثل هذا كثيرٌ في القرآن ، والله أعلم.

ثانياً – تفسير القرآن بالسنة:

إذا لم نجد للقرآن تفسيراً في القرآن رجعنا إلى السنة النبوية وذلك لأن النبي(ﷺ)هو أعلم الخلق بعد معلمه جبريل بالقرآن الكريم، وقد تكفل الله له ببيانه، وهو معصوم بالوحي، وهو المكلف بشرحه وبيانه للناس من خلال أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته، فلا عجب أن يكون أعلم الناس به.

الآيات الدالة على حجية السنة كثيرة، ولو أردنا أن أنّا أردنا استقصاءها لطال المقام بنا! حسبي التذكير ببعض الأدلة القرآنية: قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } والرد إلى رسول الله (ﷺ) يكون إلى شخصه حال حياته، وإلى سنته بعد موته.

والسنة لها أحوال مع القرآن الكريم :

الأولى : أن تكون مؤكدةً لما في القرآن الكريم : مثال ذلك : فرض الله الحج بقوله : { وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً } ، وقال النبي(ﷺ):((يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا)) [أخرجه مسلم] .

القسم الثاني : أن تكون منشئةً لحكم ليس في القرآن فقول الله تعالى : { وأن تجمعوا بين الأختين } ، لكن أرأيت لو قلت لك: اذكر دليلاً يقضي بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها؟ لن تجد دليل ذلك في القرآن ، السنة أنشأت هذا الحكم الجديد، قال – صلى الله عليه وسلم – :((لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا ، وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا)) [البخاري] .

القسم الثالث: أن تكون مبينة لما في القرآن من ابهام: عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: لما نزلت (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام: ٨٢]، قلنا: يا رسول الله (ﷺ)، أيّنا لم يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون ، (لم يلبسوا إيمانهم بظلم): بشرك ، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ((يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)) [لقمان: ١٣].

ثالثاً– تفسير القرآن بأقوال الصحابة:

إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم ومثل عبد الله بن مسعود، روى الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عن مسروق؛ قال: قال عبد الله يعني ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلمُ مكان أحد أعلمَ بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته.

وقال الأعمش أيضا عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

المفسرون من الصحابة:

منهم عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله(ﷺ) وترجمان القرآن، ببركة دعاء رسول الله(ﷺ) له حيث قال:" اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل" وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وبقية الخلفاء الأربعة، وعبد الله بن الزبير، وأبي موسى الأشعري، (رضي الله عنهم أجمعين).

من أسباب الرجوع الى أقوال الصحابة في التفسير:

١ – أنهم شهدوا التنزيل وعرفوا أحواله.

٢ – أنهم أهل اللسان الذي نزل به القرآن.

٣ – أنهم عرفوا أحوال من نزل فيهم القرآن من العرب واليهود.

٤ – سلامة مقصدهم.

٥ – حسن فهمهم.

مصادرهم في التفسير:

كان الصحابة يرجعون في تفسيرهم للقرآن إلى مصادر يستفيدون منها حال تفسيرهم للقرآن، ومنها:

١ – القرآن الكريم.

٢ – السنة النبوية.

٣ – اللغة العربية.

٤– الفهم والاجتهاد.

٥– أهل الكتاب

١– القرآن الكريم:

سبق أن ذكرت في المبحث السابق أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فسَّر القرآن بالقرآن، وقد سلك الصحابة هذا المنهج ففسروا به، وكان ذلك منهم اجتهاداً، ومن أمثلة ذلك تفسير قوله تعالى: {وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ} [الطور: ٥]، قال خالد بن عرعر: سمعت عليّاً يقول: السقف المرفوع: هو السماء، وقال: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ٣٢] .

وفسَّر عمر رضي الله عنه تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧] فقال: هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة، وقال: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصافات: ٢٢] قال: «ضرباءهم»

٢- السنة النبوية:

أفاد الصحابة من السنة النبوية في تفسيرهم القرآن، وهم في بعض الأحيان يروون ما وصلهم أو سمعوه من تفسير النبي(ﷺ) القرآن ، وفي أحيان أخرى يذكرونه دون إسناد إلى الرسول(ﷺ) ، وهذا يدل على اعتمادهم السنة النبوية وإن لم ينصوا على رفعه .

ومن أمثلة ذلك تفسير ابن عباس لقوله تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق: ٣٠] قال فيه: «فوضع قدمه فقالت حين وضع قدمه فيها: قدٍ قدٍ ... إلخ»، فابن عباس فسر هذه الآية بما جاء عن النبي(ﷺ)، وإن لم يسنده مباشرة إليه ، وهذا يأتي غالباً فيما لا مجال للعقل فيه

٣- اللغة العربية:

نزل القرآن بلغة العرب، وهي لغة الصحابة رضي الله عنهم، ولذا فهم قد فهموا الخطاب الإلهي؛ لأنه نزل بلغتهم، وقد فسروا القرآن بلغتهم، وشواهد ذلك أكثر من أن تحصر. ومن ذلك تفسير ابن عباس لقوله تعالى: {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} [الانشقاق: ٢] قال: سمعت لربها.

٤- أهل الكتاب: رجع الصحابة إلى مرويات أهل الكتاب، ورووها في التفسير، ولا يلزم من ذكرهم لهذه المرويات قَبولهم لها.

ومن أمثلة ذلك رواه الطبري عن عثمان بن حاضر قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: قرأ معاوية هذه الآية فقال: «عين حامية»، فقال ابن عباس: إنها {عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [الكهف: ٨٦]، قال: فجعلا كعباً بينهما، قال: فأرسلا إلى كعب الأحبار، فسألاه، فقال كعب: أما الشمس فإنها تغيب في ثأط، فكانت على ما قال ابن عباس، والثأط: الطين.

٥- الفهم والاجتهاد: أعمل الصحابة رضي الله عنهم عقولهم في فهم القرآن، واستنبطوا منه، وكانوا فيه على تفاوت، فمنهم المكثر ومنهم دون ذلك، وكان اجتهادهم مبنيّاً على علم، ولم يكونوا يقولون في القرآن بآرائهم بغير علم، ولذا حلوا ما استشكل على غيرهم فهمه، وأوضحوا لهم هذا المشكل،

مميزات تفسير الصحابة

يمتاز التفسير في عهد الصحابة بعدد من الميزات، أهمها:

أولا: لم يفسّر القرآن جميعه، وإنما فسّر بعض منه، وهو ما غمض فهمه، وهذا الغموض كان يزداد كلما بعد الناس عن عصر النبي (ﷺ) والصحابة(رضي الله عنهم).

ثانيا: قلّة الاختلاف بينهم في فهم معانيه.

ثالثا: كانوا كثيرا ما يكتفون بالمعنى الإجمالي، ولا يلزمون أنفسهم بتفهّم معانيه تفصيلا، فيكفي أن يفهموا من مثل قوله تعالى: (وَفاكِهَةً وَأَبًّا) أنه تعداد لنعم الله تعالى على عباده.

رابعا: الاقتصار على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ، مثل قولهم في قول الله تعالى: (غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ)، أي: غير متعرّض لمعصية.

خامسا: ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله، نظرا لاتحادهم في العقيدة، ولأن الاختلاف المذهبي لم يقم إلا بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم.

سادسا: لم يدوّن شيء من التفسير في هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني للهجرة.

سابعا: اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءا منه وفرعا من فروعه، ولم يتخذ التفسير له شكلا منظما.

رابعاً- تفسير القرآن بأقوال التابعين:

إذا لم نجد تفسيراً للآية في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة رجع كثير من العلماء إلى أقوال التابعين، والتابعون قد تلقوا التفسير عن الصحابة مباشرة، وكانوا في عصر الاحتجاج اللغوي، فلم تفسد ألسنتهم بالعجمة، وكان لهم من الفهم وسلامة المقصد ما لهم، كل هذا جعل من جاء بعدهم يرجع إلى أقوالهم في التفسير، ويعتمدها وذلك لأسباب منها:

١ – أنهم تعلموا على يد أصحاب النبي (ﷺ) خاصة الذين أخذوا منهم علماً كثيراً كمجاهد وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، وغيرهم.

٢ – أنهم عاشوا في القرون المفضلة؛ التي قربت من عصر النبوة، ولم تظهر فيها البدع المضلة ظهوراً بيّناً.

٣ – لأنهم عاشوا في عصر اللغة الذهبي قبل أن تفسد العجمة اللسان العربي، فهم أعلم الناس بعد أصحاب النبي(ﷺ) بلغة القرآن.

٤ – أنهم كانوا أئمة في العلم والصلاح، عرفوا باستقامة في المنهج، وصلاح في المعتقد، وحسن سيرة في العبادة وصدق وأمانة وورع وتقوى.

مصادر تفسير التابعين:

١ – القرآن الكريم.

٢ – السنة النبوية الصحيحة.

٣ – أقوال الصحابة–رضي الله تعالى عنهم.

٤ – أن يأخذ التفسير عن تابعي آخر.

٥ – التفسير باللغة العربية.

٦ – أن يأخذ التفسير عن أهل الكتاب، وهو نوعان:

٧ – الفهم والاجتهاد.

٨ – ما عرفه من الوقائع والعادات والأحوال التي كان عليها الناس وقت نزول الوحي.

حجية قول التابعين في الأخذ بتفسير القرآن الكريم:

١ – أن التابعين إذا أجمعوا على شيء كان إجماعهم حجة، ويجب الأخذ بقولهم، لأن الإجماع لا بدّ وأن يستند إلى دليل شرعي، ولا تجتمع الأمة على ضلالة.

٢ – أما إذا اختلفوا فلا يكون قولهم حجة.

٣ – فإن قال أحدهم بتفسير، ولم يأت تفسير غيره: فإن كان مما لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، ولم يعلم عن هذا التابعي أخذ عن ثقافة أهل الكتاب، فالأخذ به أولى من تركه، لاحتمال أن يكون سمعه من صحابي.

٤– أما إذا كان فيه مجال للرأي والاجتهاد، فنحن مخيرون بين قبوله ورده.

المفسرون من التابعين:

ولقد شهد جيل التابعين عددا عظيما من المفسرين، نذكر منهم: (سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة البربري، وعطاء ابن أبى رباح، وطاوس بن كيسان، وعلقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وعبيدة بن عمرو، وعبيد بن نضيلة، والأسود بن يزيد، وأبا عبد الرحمن السلمى، وعامر الشعبي، والحسن البصرى، وقتادة بن دعامة، وأبا العالية، وسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم)، وغيرهم ممن أسهم فى محيط التفسير بما لا يزال وسيظل– إن شاء الله– ثروة تفسيرية، ينتفع بها طلاب العلم ورواد الثقافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فجزاهم الله خير الجزاء، ورضى عنهم في الأولين والآخرين، وفى الملأ الأعلى إلى يوم الدين.

يمتاز التفسير في مرحلة التابعين بالمميزات الآتية

أولا: دخل التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وكان لا يزال عالقا بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود وبدء الكائنات، وكثير من القصص.

ثانيا: ظلّ التفسير محتفظا بطابع التلقي والرواية، إلا أنه لم يكن تلقيا ورواية بالمعنى الشامل، كما هو الشأن في عصر النبي (ﷺ) وأصحابه.

ثالثا: ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض التفسيرات التي تحمل في طيّاتها هذه المذاهب، فنجد مثلا قتادة بن دعامة الدوسي ينسب إلى الخوض في القضاء والقدر ويتّهم بالقدرية

رابعا: كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم، وإن كان اختلافا قليلا بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسّرين.

خامساً- تفسير القرآن وفق لغة العرب

إذا لم يجد المفسر لتفسير الآية تفسيراً لا في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة، ولا في أقوال التابعين يرجع الإنسان إلى اللغة العربية التي نزل هذا القرآن بها، ولا يمكن لإنسان يجهل لغة العرب نحواً وصرفا وبلاغة ومعنىً أن يقدم على تفسير القرآن.

أخبر تبارك وتعالى أن هذا الكتاب جاء بلغة العرب فقال: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } (فصلت:٣). ومن ثم فلا غنى لمن يريد فهم القرآن وتدبره من أن يعرف لغة العرب. ولذا أوصى علماء التفسير بالاعتناء باللغة لفهم القرآن وتفسيره.

وحكى صاحب كتاب مقدمة المباني إجماع الصحابة على جواز تفسير القرآن باللغة.

وقال الإمام مالك: "لا أوتي برجل يفسر كلام الله وهو لا يعرف لغة العرب إلا جعلته نكالاً".

لذا كان أئمة التفسير من أصحاب النبي(ﷺ) يستعينون في فهم القرآن الكريم وتفسيره بلغة العرب.

قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب».

التفسيرُ اللغويُ: بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب.

ومن أمثلةِ تفسيرِ الألفاظِ، تفسيرُ لفظ «استوى» في قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس: ٣]، قال أبو عبيدة (ت:٢١٠): «مَجَازُهُ: ظَهَرَ عَلَى العَرْشِ وعَلاَ عَلَيه، ويُقالُ: اسْتَوَيتُ على ظَهْرِ الفَرَسِ، وعلى ظَهْرِ البَيتِ».

مدارس أهل التفسير وروادها

أولاً- مدرسة التفسير بمكة

قيامها: قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فكان يجلس لأصحابه من التابعين، يفسر لهم كتاب الله ويوضح لهم من معانيه وكان تلاميذه يعون عنه ما يقول، ويروون لمن بعدهم ما سمعوه منه. ومن أهم رجال هه المدرسة:

١- **سعيد بن جبير:** هو أبو محمد، أو أبو عبد الله، سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالي مولاهم، كان حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال، سمع جماعة من أئمة الصحابة روى عن ابن عباس، و ابن مسعود، وغيرهما.

مكانته في التفسير

كان رحمه الله من كبار التابعين ومتقدمهم في التفسير و الحديث، والفقه، أخذ القراءة عن ابن عباس عرضا وسمع منه التفسير و اكثر روايته عنه، وقد جمع سعيد القراءات الثابتة عن الصحابة وكان يقرأ بها، ولا شك أن جمعه لهذه القراءات كان يعطيه القدرة على التوسع في معرفة معاني القرآن وأسراره، وكان سعيد يتورع من القول في التفسير برأيه وهذا ما رواه ابن خلكان. ولقد جمع سعيد علم أصحابه من التابعين و ألم بما عندهم من النواحي التي برزوا فيها فقد قال خصيف:" كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، و بالحلال و الحرام طاوس، و بالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، واجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير".(ت:٩٥هـ).

٢- **مجاهد بن جبر:** هو مجاهد بن جبر المكي، المقرئ، المفسر، أبو الحجاج المخزومي، مولى السائب كان أحد الأعلام الأثبات، ولد سنة إحدى و عشرين في الهجرة، وكانت وفاته بمكة وهو ساجد سنة أربع ومائة على الأشهر، وعمره ثلاث و ثمانون سنة.

مكانته في التفسير:

لقد كان رحمه الله أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير وكان أوثقهم، ولهذا اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما، وقد روى الفضل ابن ميمون أنه سمع مجاهد يقول: "عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة "، وهناك رواية بأنه عرضه ثلاث عرضات ؛ يقف عند كل آية، وفيم نزلت، وكيف كانت، ولا تعارض بين الروايتين.

مجاهد والتفسير العقلي

وكان مجاهد رحمه الله يعطي عقله حرية واسعة في فهم نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيدا، فإذا مر بنص قرآني من هذا القبيل، وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح بعيدا على التشبيه و التمثيل، و قد روى ابن جرير في تفسيره هذا المبدأ وذكر أمثلة كثيرة منها: أنه فسر قوله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظره} بقوله: (تنتظر الثواب من ربها، لا يراه من خلقه شيء) وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكئا قويا للمعتزلة فيما ذهبوا إليه في مسألة رؤية الله تعالى. وهذا التفسير لا يؤخذ على مجاهد، فمجاهد رضي الله عنه إمام في التفسير غير مدافع وليس في إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما ينقص من قيمته أو يقلل من مكانته. إلا أن هذا الرأي يبقى رأيا قابلا للمناقشة وخصوصا أن جماهير علماء المسلمين سلفا وخلفا يعارضونه إن قصد به الإطلاق، لكن يكون هذا في الدنيا وليس في الجنة.

٣- **عطاء ابن أبي رباح:** هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع و عشرين وتوفي سنة أربع عشرة و مائة من الهجرة على أرجح الأقوال: كان رحمه الله اسود، أعور، افطس، أشل، أعرج، ثم عمي بعد ذلك.

روى عن ابن عباس، و ابن عمر، و ابن عمرو بن العاص و غيرهم و حدث عن نفسه أنه ادراك مائتين من الصحابة، وكان ثقة فقيها عالما كثير الحديث و انتهت إليه فتوى أهل مكة و كان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إلى يا أهل مكة وعندكم عطاء.

مكانته في التفسير:

لقد شهد لعطاء كثير من العلماء على ثقته و صدقه، فقد شهد له أستاذه ابن عباس، و قال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة كان عطاء أعلمهم بالمناسك، و عكرمة أعلمهم بالسير، و سعيد أعلمهم بالتفسير، و الحسن اعلمهم بالحلال و الحرام. و قال فيه أبو حنيفة: ما رأيت فيمن لقيت افضل من عطاء ولا لقيت فيمن لقيت اكذب من جابر الجعفي. و قال فيه ابن حبان: كان من سادات التابعين فقها و علما وورعا وفضلا وهو عند أصحاب الكتب السنة.

و مع هذه الأقوال فقد كان عطاء يقلل من التفسير و يرجع ذلك إلى تحرجه من القول بالرأي و لهذا لم يرو عن ابن عباس كما روى مجاهد و سعيد، و قد سئل عطاء عن مسألة، فقال: لا أدري، فقيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأي.

ثانيا: مدرسة التفسير في المدينة:

كان قيام هذه المدرسة على أبي بن كعب بالمدينة التي كانت محط رحل الكثير من الصحابة رضي الله عنهم. ومن أشهر رجالاتها: أبو العالية، ومحمد بن كعب القرضي، وزيد بن أسلم.

١- **أبو العالية:** هو أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي مولاهم، أدراك الجاهلية، و أسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه و سلم بسنين. روى عن علي، و ابن مسعود، وابن عباس، و ابن عمر، و أبي بن كعب، وغيرهم، وهو من ثقات التابعين بالتفسير، و قال فيه ابن معين و أبو زرعة و أبو حاتم: ثقة و قال اللالكائي: مجمع على ثقته، و قال العجلي: تابعي ثقة. و قد اجمع عليه أصحاب الكتب الستة و كان يحفظ القرآن و يتقنه، و قال ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة اعلم بالقراءة. من أبي العالية، و تروي عن أبي العالية نسخة كبيرة في التفسير، برويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية. و قد كانت وفاته سنة تسعين من الهجرة على أرجح الأقوال.

٢-**محمد بن كعب القرظي:** هو أبو حمزة، أو أبو عبد الله محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرطبي المدني، من خلفاء الاؤس، روي عن علي، و ابن مسعود، و ابن عباس و غيرهم. و روى عن أبي بالواسطة، و قد اشتهر بالثقة، و العدالة، و الورع و كثرة الحديث، و تأويل القرآن.

و قال فيه ابن سعد: كان ثقة، عالما، كثير الحديث ورعا، وقال ابن عون،: ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن من القرظي، وهو عند أصحاب الكتب السنة، و كان يقص في المسجد فسقط عليه و على أصحابه سقف فمات هو و جماعة معه تحت الهدم، سنة ثماني عشرة و مائة من الهجرة و قيل غير ذلك.

٣-**زيد بن أسلم:** هو أبو أسامة، أو أبو عبد الله، زيد بن أسلم العدوى المدني الفقيه المفسر، مولى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، كان من كبار التابعين الذين عرفوا بالقول في التفسير و الثقة فيما يروونه، قال فيه الإمام احمد و أبو زرعة و أبو حاتم و النسائي ثقة، وهو عند أصحاب الكتب الستة.

و قد عرف زيد بأنه كان يفسر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك، ولا نجد في العلماء من نسب زيد إلى مذهب من المذاهب المبتدعة لانه كان يفسير القرآن بالرأي.

واكثر من اخذ التفسير عن زيد من علماء المدنية: ابنه عبدالرحمن، و مالك ابن انس إمام دار الهجرة، وكانت وفاته سنة ست وثلاثين ومائة من الهجرة

ثالثاً: مدرسة التفسير بالعراق

قامت مدرسة التفسير بالعراق على عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الذي يعتبر الأستاذ الأول لهذه المدرسة، نظرا لشهرته في التفسير وكثرة المروى عنه وكونه معلما ووزيرا لعمار بن ياسر عندما ولى على الكوفة. وقد امتاز اهل العراق بأنهم أهل الرأي في تفسير القرآن الكريم.

من أشهر رجالها: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمداني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

١- علقمة بن قيس: هو علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك النخعي الكوفي ولد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، روى عن عمر و عثمان و علي وابن مسعود و غيرهم وهو من اشهر رواة عبدالله بن مسعود وأعرفهم به و أعلمهم بعلمه. وقال ابو المثني فيه: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبدالله اشبه الناس به سمتا وهديا.
وكان رحمه الله ثقة مأمونا، على جانب عظيم من الورع والصلاح، قال فيه الإمام احمد:- ثقة من أهل الخير وهو عند أصحاب الكتب الستة، مات رحمه الله سنة إحدى وستين أو اثنتين وستين من الهجرة، وعمره تسعون سنة.

٢ – **مسروق:** هو ابو عائشة مسروق بن الأجدع ابن مالك بن أمية الهمذاني الكوفي العابد، سماه عمر مسروق بن عبدالرحمن، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب وغيرهم وكان اعلم أصحاب بن مسعود ويمتاز بورعه وعلمه وعدالته وكان شريح القاضي يستشيره في معضلات المسائل. قال الشعبي فيه: ما رأيت اطلب للعلم منه، وقد حدث مسروق انه جالس أصحاب رسول الله(ﷺ) فوجدهم كالأخاذ، وكان مسروق إماما في التفسير وعالما خبيرا بمعاني كتاب الله، وقال فيه ابن معين: ثقة لا يسأل عن مثله وقال ابن سعد: كان ثقة، وله أحاديث صالحة وأخرج له الستة. وقد روى شعبة عن أبي اسحق انه قال: حج مسروق فلم ينم الا ساجدا، وكانت وفاته سنة ثلاث و ستين من الهجرة على الاشهر.
٣ – **الأسود بن يزيد:** هو ابو عبيد الرحمن، الأسود بن يزيد ابن قيس النخعي. كان من كبار التابعين، ومن رواة عبدالله بن مسعود، روى عن أبى بكر وعمر علي وحذيفة وبلال وغيرهم. وكان ثقة صالحا، عظيم الفهم لكتاب الله. قال فيه الامام احمد: ثقة من أهل الخير وهو عند أهل الكتب الستة. وقال الحكم: كان الأسود يصوم الدهر وذهبت إحدى عينيه من الصوم، وقد توفي بالكوفة سنة أربع وسبعين او خمس وسبعين من الهجرة على الخلاف في ذلك.

التفسير بالمأثور

يشمل التفسير المأثور ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نُقِل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقِل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم.

تدرَّج التفسير المأثور فى دوريه – دور الرواية ودور التدوين – أما في دور الرواية، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيَّن لأصحابه ما أشكل عليهم من معانى القرآن، فكان هذا القَدْر من التفسير يتناوله الصحابة بالرواية بعضهم لبعض، ولمن جاء بعدهم من التابعين.

ثم وُجِد من الصحابة مَنْ تكلم في تفسير القرآن بما ثبت لديه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بمحض رأيه واجتهاده، وكان ذلك على قِلَّة يرجع السبب فيها إلى الروعة الدينية التي كانت لهذا العهد، والمستوى العقلي الرفيع لأهله، وتحدد حاجات حياتهم العملية، ثم شعورهم مع هذا بأن التفسير شهادة على الله بأنه عَنِىَ باللفظ كذا.

ثم وُجِد من التابعين مَنْ تصدَّى للتفسير، فروى ما تجمَّع لديه من ذلك عن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة، وزاد على ذلك من القول بالرأي والاجتهاد، بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بَعُدَ الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة.

ثم جاءت الطبقة التي تلى التابعين وروت عنهم ما قالوا، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من غموض ... وهكذا ظل التفسير يتضخم طبقة بعد طبقة، وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التي سبقتها، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

ثم ابتدأ دور التدوين – وهو ما يعنينا في هذا البحث – فكان أول ما دُوِّن من التفسير، هو التفسير المأثور، على تدرج في التدوين كذلك، فكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول فى هذا.

وقد رأينا أصحاب مبادئ العلوم حين ينسبون – على عادتهم – وضع كل علم لشخص بعينه، يعدون واضع التفسير – بمعنى جامعه لا مُدَوِّنه – الإمام مالك بن أنس الأصبحي، إمام دار الهجرة.

وكان التفسير إلى هذا الوقت لم يتخذ له شكلاً منظماً، ولم يُفرد بالتدوين، بل كان يُكتب على أنه باب من أبواب الحديث المختلفة، يجمعون فيه ما رُوِى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين.

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، وأُفرد بتأليف خاص، فكان أول ما عُرف لنا من ذلك، تلك الصحيفة التي رواها علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس.

ثم وُجِد من ذلك جزء أو أجزاء دُوِّنت في التفسير خاصة، مثل ذلك الجزء المنسوب لأبى رَوق، وتلك الأجزاء الثلاثة التي يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج.

ثم وُجِدَت من ذلك موسوعات من الكتب المؤلَّفة في التفسير، جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيهم، كتفسير ابن جرير الطبري ويُلاحَظ أن ابن جرير ومَنْ على شاكلته – وإن نقلوا تفاسيرهم بالإسناد – توسَّعوا في النقل وأكثروا منه، حتى استفاض وشمل ما ليس موثوقاً به. كما يُلاحَظ أنه كان لا يزال موجوداً إلى ما بعد عصر ابن جرير ومَنْ على شاكلته – ممن أفردوا التفسير بالتأليف – رجال من المحدِّثين بوَّبوا للتفسير باباً ضمن أبواب ما جمعوا من الأحاديث.

ثم وُجِد بعد هذا أقوام دوَّنوا التفسير المأثور بدون أن يذكروا أسانيدهم في ذلك، وأكثروا من نقل الأقوال فى تفاسيرهم بدون تفرقة بين الصحيح والعليل، مما جعل الناظر في هذه الكتب لا يركن لما جاء فيها، لجواز أن يكون من قبيل الموضوع المختلق، وهو كثير في التفسير.

ثم بعد هذا تغيَّرت موجهات الحياة، فبعد أن كان التدوين في التفسير لا يتعدى المأثور منه، تعدَّى إلى تدوين التفسير بالرأي على تدرج فيه .

*** اللَّون الشخصي للتفسير المأثور:**

من المعلوم أن الشخص الذى يُفسِّر نصاً من النصوص، يُلوِّن هذا النص بتفسيره إياه، لأن المتفهم لعبارة من العبارات، هو الذى يحدد معناه ومرماها وفق مستواه الفكرى، وعلى سعة أفقه العقلى، وليس فى استطاعته أن يفهم من النص إلا ما يرمى إليه فكره، ويمتد إليه عقله، وبمقدار هذا يتحكم فى النص ويُحدِّد بيانه، وهذا أصل ملحوظ نجد آثاره واضحة فى كتب التفسير على اختلافها، فما من كتاب منها إلا وقد وجدنا آثار شخصية صاحبه وقد طبعت تفسيره بطابع خاص لا يعسر علينا إدراكه.

أسباب الضعف في التفسير بالمأثور

ونستطيع أن نُرجِعْ أسباب الضعف في رواية التفسير المأثور إلى أُمور ثلاثة:

أولها: كثرة الوضع فى التفسير.

ثانيها: دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها: حذف الأسانيد.

السبب الأول: الإسرائيليات:

والمراد بها اللون اليهودي واللون النصراني في التفسير وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية. ومبدأ دخولها في التفسير يرجع لعهد الصحابة، غير أن الصحابة وإن تشوقوا لمعرفة التفاصيل لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء ولم يقبلوا منهم كل شيء، مع توقفهم فيما يلقى إليهم ما

دام يحتمل الصدق والكذب، امتثالا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله». فلم يسألوهم عن شيء يتصل بالعقيدة ولم يعدلوا عما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم. كذلك لا يصدقون اليهود فيما يخالف الشريعة ...

وهكذا لم يخرج الصحابة عن دائرة الجواز التي حددها لهم الرسول في قوله: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار» . كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا». أباح الأول أن يحدثوا عما وقع لبني إسرائيل من الأعاجيب للعبرة والعظة بشرط أن يعلموا أنه ليس مكذوبا، والثاني يراد منه التوقف فيما يحدّث به أهل الكتاب مما يكون محتملا للصدق والكذب، أما ما خالف شرعنا فنحن في حل من تكذيبه.

أما التابعون: فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب وكثرت في عهدهم الروايات الإسرائيلية لكثرة من دخل منهم في الإسلام، فظهرت في هذا العهد جماعة حشوا التفسير بكثير من القصص المتناقضة كمقاتل بن سليمان. وهكذا تزايد أمر الإسرائيليات حتى كان جماعة بعد عصر التابعين لا يردون قولا، ثم في عصر التدوين وجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذه القصص الإسرائيلية؟.

وتنقسم الإسرائيليات إلى ثلاث أقسام:

الأول: ما يعلم صحته بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم

وهو صحيح مقبول. وكذا إذا كان له شاهد من الشرع يؤيده.

الثاني: ما يعلم كذبه فلا يصح قبوله ولا روايته.

الثالث: مسكوت عنه لا هو من الأول ولا من الثاني، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته للحديث السابق ... وهذا القسم غالبه مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

موقف المفسر إزاء الإسرائيليات:

يجب أن يكون المفسر يقظا جدا ليستخلص ما يوافق العقل ويتقيد بمقدار الضرورة. ويجب أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا وجد في سنة نبينا- صلى الله عليه وسلم- بيانا للقرآن، ويجوز أن يذكر خلاف المتقدمين بشرط أن لا يطلقه بل ينبه على الصحيح ويزيف غيره، لئلا يوقع القراء في الاضطراب، على أن من الخير للمفسر كل الخير الإعراض عن هذه الإسرائيليات وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يعد صارفا عن القرآن وشاغلا عن التدبر في حكمته وأحكامه.

وأشهر الرواة للإسرائيليات:

١ - عبد الله بن سلام(رضي الله عنه). ٢ - كعب الأحبار.

٣ – وهب بن منبه. ٤– عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

السبب الثاني لضعف التفسير المأثور: حذف الإسناد:

منذ ظهر الوضع في عصر الصحابة صاروا يسألون عن الإسناد، فكان ما يروونه من التفسير المأثور عن النبي أو الصحابة لا يروونه إلا بإسناد، ثم جاء بعد عصر التابعين من جمع التفسير، فدوّن التفسير المأثور بإسناده كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، ثم جاء بعد هؤلاء أقوام ألفوا في التفسير فاختصروا الأسانيد وأهملوا عزو الأقوال لقائليها ولم يتحروا الصحة فالتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده وينقل ذلك من بعده ظانا له أصلا، ولعل هذا أخطر الأسباب جميعا، لأن حذف الأسانيد جعل من ينظر في هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها.

السبب الثالث: الوضع:

وقد كثر الوضع أي الكذب في الحديث والتفسير، وأثّر الوضع بأن ضاع كثير من هذا التراث الذي خلفه لنا السلف، لأن ما أحاط به من شكوك أفقدنا الثقة به، وجعلنا نرد كل رواية تطرق إليها شيء من الضعف، وربما كانت صحيحة، كما أن اختلاطها جعل بعض من ليس قادرا على التمييز بين الصحيح والعليل يحكم على الجميع بالصحة.

من التفاسير التي عنت بالأثر:

١– جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري.

٢ – بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي.

٣ – الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي اسحق الثعلبي.

٤ – معالم التنزيل لأبي محمد الحسين البغوي.

٥ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي.

٦ – تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء الحافظ بن كثير.

التفسير بالرأي

يُطلق الرأي على الاعتقاد، وعلى الاجتهاد، وعلى القياس، ومنه: أصحاب الرأي: أي أصحاب القياس. والمراد بالرأي هنا "الاجتهاد" وعليه فالتفسير بالرأي، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسِّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانته فى ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسِّر، وسنذكرها قريباً إن شاء الله تعالى.

* موقف العلماء من التفسير بالرأي:

اختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي، ووقف المفسِّرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين:

فقوم تشدَّدوا في ذلك فلم يجرءوا على تفسير شيء من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم، وقالوا: لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وإنما له أن ينتهى إلى ما روى النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضى الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين.

وقوم كان موقفهم على العكس من ذلك، فلم يروا بأساً من أن يفسِّروا القرآن باجتهادهم، ورأوا أن مَنْ كان ذا أدب وسيع فموسَّع له أن يُفسِّر القرآن برأيه واجتهاده.

والفريقان على طرفي نقيض فيما يبدو، وكل يُعَزِّز رأيه ويُقَوِّيه بالأدلة والبراهين. **أما الفريق الأول – فريق المانعين – قد استدَّلوا بما يأتي:**

١– قالوا: إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم، والقول على الله بغير علم منهى عنه فالتفسير بالرأي منهى عنه، دليل الصغرى: أن المفسِّر بالرأي ليس على يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالى، ولا يمكنه أن يقطع بما يقول، وغاية الأمر أنه يقول بالظن، والقول بالظن قول على الله بغير علم.

قال تعالى: (وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ).

٢– ما رواه الترمذي عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي(ﷺ) أنه قال: "اتقوا الحديث عنى إلا ما علمتم، فمَن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومَن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار".. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

٢ – ما رواه الترمذي وأبو داود عن جُندب أنه قال: قال رسول الله(ﷺ): "مَن قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ".

٤– ما روي عن السلف الصالح من الصحابة، فمن بعدهم من التحرج من الكلام في تفسير القرآن، فمن ذلك ما رواه ابن أبي مليكة، قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن فقال: "أي سماء تظلني؟، وأي أرض تقلني؟، وأين أذهب؟، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله؟، وفي رواية: "إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم؟ ".

ومنه: ما ورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: "أنا لا أقول في القرآن شيئا"، وكان سعيد إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع شيئا.

وقد ناقش المجوزون للتفسير بالرأي والاجتهاد هذه الأدلة فقالوا:

١- أما الحديث الأول: ففي صحته وثبوته نظر؛ لأن أحد رواته وهو: سهيل بن أبي حزم القطيعي قد تكلم فيه، وعلى فرض صحتهما والتسليم بهما، فقد أجاب عنهما العلماء بما يأتي:

أ- أن المراد من يقول في القرآن بمجرد رأيه وهواه، بأن يجعل الرأي أصلًا والقرآن تبعًا؛ وذلك بأن يكون له في المسألة رأي، وإليه ميل بطبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه؛ ليحتج به على تصحيح غرض، ولو لم يكن ذلك الرأي والهوى لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى، ومثل هذا إن صادف الحق والصواب في الواقع ونفس الأمر فإنما هو اتفاق من غير قصد، ورمية من غير رامٍ، وهذا الصنف من الناس قد يكون معه علم وذلك: كالذين يحتجون ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، كالمعتزلة، والخوارج وأمثالهم، وقد يكون مع الجهل، وذلك، كالمعتزلة، والخوارج، وأمثالهم، وقد يكون مع الجهل، وذلك: كما يصنع بعض الذين يدعون العلم اليوم، ويتهجمون على تفسير كتاب الله بالهوى والاستحسان، فيحرفون الكلم عن مواضعه، ويخرجون بالقرآن عن منهجه الواضح المستقيم.

ب- أن المراد بالحديثين من يفسر المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

جـ- أو الذي يفسر القرآن، ولم يعرف من العلوم اللغوية والشرعية ما يؤهله لهذا، فمثل هذا، وإن أصاب الصواب فقد أخطأ الطريق الصحيح في تفسيره.

- أما ما ذكرتموه عن السلف الصالح، من الصحابة والتابعين: فهو معارض بما يخالفه، فقد روي عن الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الكلالة فقال: أقول فيها برأيي؛ فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه، الكلالة: من لا ولد له، ولا والد"، فلما ولي الخلافة الفاروق عمر رضي الله عنه قال: "إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه"، رواه ابن جرير، وغيره، وهذا يدل على أنه قوله: "أي سماء تظلني" إنما أراد به ما لم يقم عليه دليل، وما لا علم له به، أو تخوفا من أن لا يصيب مراد الله، وكذلك: يحمل ما روي عن بعض السلف مما ذكروه على هذا.

قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره: "فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم من الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا: فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه، مما يعلمه، لقوله تعالى: {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَه} ولما جاء في الحديث الذي جاء من طرق: "من سئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار" رواه الترمذي.

وأيضا: فقد روي عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم القول في تفسير القرآن، وذلك كالسادة الأخيار: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس، وأبي هريرة، وغيرهم، فلولا أن تفسير القرآن جائز لمن تأهل له لما فعلوه؛ لأنهم كانوا أشد الناس ورعا، وتقوى، ووقوفا عند حدود الله.

وكذلك: ورد تفسير القرآن عن كثير من خيار التابعين، كسعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، وقتادة، والحسن البصري، ومسروق، والشعبي، وغيرهم، مما يدل على أن من امتنع منهم من تفسير القرآن إنما كان زيادة احتياط، ومبالغة في التورع.

القول الراجح هو – والله أعلم–جواز التفسير بالرأي والاجتهاد:

وإذا كانت الأدلة التي استند إليها المانعون من التفسير بالاجتهاد لم تنهض أمام البحث والنظر، فقد تبين للباحث المنصف جواز التفسير بالرأي المتئد البصير، والاجتهاد الذي توفرت لصاحبه أسبابه، وهي: العلم بالعلوم التي ذكرناها في صدر الكتاب، وأيضا: لو لم نفسر القرآن بالاجتهاد لفات معنى التدبر والتأمل في القرآن الذي حثنا الله عليه في غير آية، ولفات كثير مما اشتمل عليه الكتاب الكريم من الأحكام والآداب، وألوان المعارف والعلوم، التي لا يزال يظهر منها في كتاب الله كل يوم جديد.

وليس من شك: في أن الصحيح الثابت، المروي في تفسير القرآن عن النبي (ﷺ) قليل، بالنسبة إلى ما لم يرو عنه فيه شيء، وكذلك ما روي عن الصحابة والتابعين لم يستوعب كل آيات الكتاب الكريم هذا إلى ما فيه من الضعيف، والموضوع، والإسرائيليات وهو شيء كثير ولا سيما في الآيات الكونية، التي يتجدد العلم فيها عصرا بعد عصر، وظهر بطلان ما فسرت به بطريق اليقين، فكان لا بد إذًا من فتح باب الاجتهاد في تفسير القرآن الكريم، وإلا لاستعجم شيء غير قليل من آيات القرآن الكريم، وبقيت غير مفهومة المعنى، ولا معروفا منها المراد، وهذا ينافي كونه كتاب الهداية الكبرى، والمرشد الأعظم للبشرية في عصورها المتعاقبة والمعجزة العظمى، والآية الباقية لخاتم الأنبياء، والمرسلين، على وجه الدهر.

ينقسم التفسير بالرأي الى قسمين:

الأول: التفسير المذموم المردود: وهو التفسير من غير تأهل له بالعلوم التي لا بد منها للمفسر، أو التفسير بالهوى والاستحسان، أو التفسير المقصود به تأييد المذهب الفاسد، والرأي الباطل، أو تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وهذا اللون من التفسير كثيرا ما يشتمل على المرويات الواهية.

الثاني: التفسير الممدوح المقبول: وهو التفسير المبني على المعرفة الكافية بالعلوم اللغوية، والقواعد الشرعية، والأصولية: أصول الدين، وأصول الفقه، وعلم السنن والأحاديث، ولا يعارض نقلا صحيحا، ولا عقلا سليما، ولا علما يقينا ثابتا مستقرا، مع بذل غاية الوسع في البحث والاجتهاد والمبالغة في

تحري الحق والصواب، وتجريد النفس من الهوى، والاستحسان بغير دليل، ومع مراقبة الله غاية المراقبة في كل ما يقول.

اختلاف المفسرين الأسباب والثمرات

الاختلاف بين الناس فطرةٌ فطر الله الناس عليها، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في آيات كريمات من آي القرآن الحكيم بعض هذه الاختلافات {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [الروم: ٢٢] {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ١٩٠] وقد يكون الاختلاف بين الناس رحمةً من أجل عمارة هذا الكون. والاختلاف بين المفسّرين اختلافٌ تتسع به الآفاق والمدارك وتهذّب به الأفكار وتُصقَلُ به الآراء فيعرف راجحها من مرجوحها.

الخلافات الفقهية والعقدية:

والاختلافات بين المفسّرين منها ما يرجع إلى اختلافهم في تفسير آيات الأحكام، أو الاختلاف العقدي.

أولًا: الخلافات الفقهية:

وهذا هو أكثر ما اختلف فيه العلماء، يدلّنا على هذا هذه الأسفار الضخمة الثمينة التي كُتبت في أحكام القرآن. وليس على القارئ إلَّا أن يرجع إلى تفسير آية في "أحكام القرآن" للجصّاص أو أحكام القرآن لابن العربي أو غيرهما من الكتب التي أُلّفت في هذا الموضوع.

فمن خلافاتهم في تفسير آيات الأحكام على سبيل المثال:

١ – اختلافهم في تفسير قوله تعالى: {فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [التوبة: ٢٨] حيث اختلفوا في أيّ المساجد يحرم دخولها على غير المسلمين.

٢ – اختلافهم في تفسير آية القصاص في قول الله تبارك وتعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى} [البقرة: ١٧٨] حيث اختلفوا أيقتل الحرّ بالعبد والرجلُ بالمرأة والمسلم بغيره؟

٣ – اختلافهم في تفسير قوله تعالى: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} [البقرة: ١٩٦] حيث اختلفوا أواجبة العمرة أم سنّة؟

٤ – قال تعالى: {فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} [البقرة: ١٩٦]. ذهب أكثر العلماء إلى أنّ من تمتع بالعمرة لا يجوز له أن يذبح الهدي قبل يوم النحر. وذهب الشافعية إلى أنَّه يمكنه ذلك بعد انتهائه من العمرة.

ثانيًا: الخلافات العقديّة:

هناك خلاف آخر بين العلماء، لكنّه في آيات العقيدة، حيث كان الخلاف بين كثير من الأشاعرة والمعتزلة ثمَّ بينهما وبين الحنابلة وبخاصّة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله جميعًا. وسأكتفي بذكر مثالٍ أو مثالين لكلّ نوع من هذه الخلافات، لأنها كثيرة مبثوثة في كتب التفسير والعقائد والأحكام. فمن الخلافات العقديّة مثلًا:

١- اختلافهم عند تفسير قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦] وقد جاءت هذه الآية الكريمة في محاجّة أبينا إبراهيم أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء – صلى الله عليه وآله وسلّم – قومه "قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون" حيث احتُجَّ بهذه الآية على المعتزلة الذين يرون أن العبد يخلق أفعال نفسِه، فرأى خصومُهم أنّ هذه الآية تردّ عليهم فقالوا إنَّ (ما) في قوله تعالى: {خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦] مصدريّة، فالمعنى "والله خلقكم وعملكم" فعلى هذا التفسير تكون أفعال العباد مخلوقةً لله تعالى، ولكنّ المنصفين – ومنهم الإمام الطبري رحمه الله – ذهبوا غير هذا المذهب فقالوا: إنّ (ما) اسم موصول والمعنى "كيف تعبدون هذه الأصنام التي تنحتونها من الحجر والخشب وغيرهما والله سبحانه وتعالى هو الذي خلقكم وخلق هذه الموادّ التي تنحتون أصنامكم منها".

٢- اختلافهم في لفظ الكرسي: قال تعالى:{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} فقد نقل الطبري أقوالًا متعددة في تفسير الكرسي بدأها بما روي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– من أن الكرسي هو العلم واستدلَّ له بشواهد من القرآن واللغة، وذكر أقوالًا أخرى منها أن الكرسيّ على حقيقته، ومنها أنَّه العرش أو موضع القدمين (١). ولستُ بصدد الترجيح بين هذه الأقوال إذ مثل هذا له مكان آخر، كما أنني لا أودّ أن أتوسّع في هذين النوعين من الخلاف إذ محلّهما كتب الفقه والعقائد.

الخلافات بين المفسرين: أهي في التفسير بالنقل أم في التفسير بالرأي؟

قسمنا التفسير من قبل إلى تفسير بالنقل وتفسير بالرأي، ونتساءل هنا: أهذا الاختلاف بين المفسرين في التفسير بالنقل أم في التفسير بالرأي؟ والذي يبدو لنا أن جل الاختلاف إن لم يكن كله إنما هو في **التفسير بالرأي**، أما التفسير بالمنقول فلا نكاد نجد فيه خلافًا، وقد نجد تعددًا في كثير من الروايات، لكن عند إنعام النظر نجدها متحدة من حيث المعنى.

أسباب اختلاف المفسرين

١- **اختلاف القراءات في الآيات:** الأصل في القراءات التوافق، وإنما تُعدّ القراءتان المتواترتان كالآيتين عند تعارضهما في المعنى وعدم إمكان حملهما على معنى واحد وقد مثل لهذا السبب بأمثلة منها قوله تعالى: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [البقرة: ١٢٥] ففي (اتَّخذوا) قراءتان سبعيتان: واتَخَذوا، بفتح الخاء على المضيّ، و"اتّخِذوا" بكسر الخاء على الأمر، ويستدل بالأولى على سنّيّة الصلاة خلف المقام وبالثانية على وجوبها.

٢- **احتمال الإحكام أو النسخ:** ومن أمثلته قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [البقرة: ٢١٩] حيث قيل إنّها منسوخة بآية الزكاة وقيل إنها محكمة غير منسوخة فإما أنها باقية في صدقة التطوع، وإما أن المقصود بالعفو الزكاة بعينها.

٣- **احتمال العموم أو الخصوص:** ومن أمثلته قوله تعالى: {الَّذِينَ قَال لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣]. فلفظة الناس الأولى عامّة والمراد بها خاص وهو رجل بعينه أو جماعة بعينها وقد عُرف هذا بالإطلاع على سبب النزول.

٤- **احتمال الإطلاق أو التقييد:** ومن أمثلته قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ} [النساء: ١٢] حيث جاء تقييد ميراث الزوجين في هذه الآية وجاء إطلاقه في غيرها.

٥- **احتمال الحقيقة أو المجاز:** ومن أمثلته قوله سبحانه: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: ٦٤].

٦- **احتمال اللفظ تعدد المعاني لا على سبيل الاشتراك:** ومن أمثلته قوله تعالى: {وَقَال الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: ٣٠] ثلاثة أقوال للمفسّرين في معنى الهجران هي هجر القرآن بالإعراض عنه، أو أن يقولوا فيه هجرًا أي قبيحًا، أو أن يجعلوه هجرًا من الكلام وهو ما لا نفع فيه، والأقرّب المعنى الأوّل الثاني والثالث ضعيف، وهذا من الاختلاف في الروايات وكلّها متقاربة يمكن الجمع بينها.

٧- **الاختلاف في وجوه الإعراب:** مثاله قوله تعالى: {قَال فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} [المائدة: ٢٦]، ففي إعراب "أربعين" قولان: الأوّل أنها منصوبة بمحرّمة، وعليه يُوقف على قوله "يتيهون في الأرض" والمعنى أن التحريم والتيه مدّتهما أربعون سنة. والثاني أنها منصوبة بالفعل "يتيهون"، وعليه يُوقف على قوله "محرمة عليهم" والمعنى أن التحريم كان مؤبدًا، وأن التيه كان أربعين

سنة. وأشار الكاتب إلى أن المعنى هنا أثر فيه كل من الإعراب والوقف، والحقّ هو العكس فالمعنى هو الذي أثر في الإعراب والوقف.

٨- **الاختلاف في مرجع الضمير:** ومثاله قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق: ٦] فقد اختلف في مرجع الضمير في قوله "فملاقيه" فقيل إنه عائد إلى قوله "كدحًا" وقيل إنّه عائد إلى قوله "ربك". وكلاهما صحيح. والخلاف في مرجع الضمير يعود إلى الخلاف في المعنى لا كما ذكر الكاتب.

٩- **الاشتراك اللفظي:** وقد مثّل له بأمثلة للاشتراك في الاسم والفعل والحرف. ومن الأمثلة التي ساقها قوله تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا} [طه: ١٥] فالإخفاء ورد في اللفظ بمعنيين متضادّين هما الكتم والإظهار وقد ورد التفسير بكليهما.

١٠- **الاختلاف العقدي:** مثاله قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ} [الانفطار: ١٣: ١٦] فالمعتزلة استدلوا بالآية على خلود العصاة من أهل الكبائر في النار وردَّ ذلك.

وهناك أسباب أخرى كثيرة أدت الى اختلاف المفسرين في تفسير الآيات الكريمة، وأكتفينا بهذه الأسباب على سبيل المثال لا الحصر، خشية الاطالة، فمن أراد المزيد فليرجع الى كتب علوم القرآن وبطون كتب التفسير، وبحوث منشورة عن أسباب اختلاف المفسرين.

الإجماع في التفسير

لئن كان الإجماع في الفقه حظي بعناية العلماء فألّفوا فيه إفراداً، أو ضمَّنوه شيئاً من كتبهم، فإن الإجماع في التفسير لم تكن له هذه العناية ،وهذا لا يعني عدم اهتمام المفسرين بهذا الجانب، بل تجد منهم من يحكي الإجماع في معنى بعض الآيات، ولكن هذا لا زال مبثوثاً في تفاسيرهم، لم يستخرج بعد.

والإجماع في عرف الأصوليين: اتفاق مجتهدي هذه الأمة بعد النبي(ﷺ) على حكم شرعي .

وإجماع المفسرين هو: اتفاق أهل التفسير ممن يعتد بهم في عصر من العصور على معنى آية أو آيات من القرآن الكريم.

والإجماع حجة، وهو الأصل الثالث من أصول الشريعة.

وتظهر فائدة جمع ما أجمع عليه المفسرون وأهميته فيما يلي:

١ – حمل كلام الله تعالى على لون من أصح ألوان التفسير، وأقواها ثبوتاً.

٢ – أن تعرف إجماعات المفسرين فلا يجترأ على مناقضتها.

لمعرفة إجماعات المفسرين طريقان، وكلاهما يعتمد على الاستقراء:

الأول: أن ينص أحد المحققين على حكاية الإجماع؛ كابن جرير، وابن عطية وغيرهما، وحكمهم على مسألة في التفسير بالإجماع يدل على استقرائهم لأقوال السالفين لهم ثم دور الباحث بعدهم التأكد من عدم وجود المخالف، وهذا لا يكون إلا بالاستقراء كذلك.

الثاني: أن تَستقرئ أقوال المفسرين وتَستنبِط الإجماع من أقوالهم إذا لم يكن بينهم خلاف في الآية.

مسرد بعض الإجماعات

١ – في قوله تعالى: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} [البقرة: ٢]، قال ابن أبي حاتم: «الريب: الشك، وليس في هذا الحرف اختلاف بين المفسرين» .

٢ – قوله تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ} [البقرة: ٢٦٨]. قال ابن القيم: «الفحشاء: هو البخل إجماعاً» .

٣ – في قوله تعالى: {لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: ١]. قال الماوردي: «يعني الرجعة في قول الجميع».

٤ – في قوله تعالى: {أَزِفَتِ الآزِفَةُ} [النجم: ٥٧]. قال ابن عطية: «عبارة عن يوم القيامة بإجماع المفسرين» .

٥ – في قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا} [البقرة: ١٤٣]. قال الشنقيطي: «الخطاب له صلّى الله عليه وسلّم إجماعاً»

مكانة الإجماع في التفسير

الإجماع أصل من أصول الشريعة، وهو أحد الأدلة الشرعية، وقد نال منزلة بين الأدلة الشرعية في علوم الشريعة المختلفة، كما نال اهتمام العلماء وعنايتهم تنظيرًا وتطبيقًا.

وفي التفسير خاصّة تبوّأ الإجماع منزلة عند المفسِّرين، فعَنوا به بيانًا للمعاني، واستدلالًا لها واعتراضًا وردًّا لما ضعف وشذّ منها، وعلى رأس المفسِّرين الذين عُنوا بالإجماع في التفسير إمامُهم الطبري، فقد عُني به في تفسيره عناية ظاهرة بيّنة، يلحظ هذا كلُّ مطالع لتفسيره.

وفيما يأتي بيان لأهمية الإجماع في التفسير ومكانته:

١– مكانة الإجماع في التفسير تتبيّن بمكانة الإجماع بين الأدلة الشرعية، ولا يخفى ما للإجماع من مكانة بين الأدلة الشرعية، كما أنّ مكانة الإجماع في التفسير تتبيّن أيضًا بمكانة التفسير بين العلوم

الشرعية، ولا يخفى ما للتفسير من مكانة بين العلوم الشرعية كذلك، ولمّا كان الإجماع بهذه المنزلة بين الأدلة الشرعية، وكان التفسير بهذه المنزلة بين العلوم الشرعية ظهرت أهمية ومكانة الإجماع في التفسير لتعلّقه بالأمرين.

٢- بالإجماع يُحمل كلام الله على أصح التفاسير، ويحصل الاطمئنان للمعنى الذي أُجمع عليه.

٣- لا ينبغي للمفسِّر أن يجهل ما أجمع عليه المفسِّرون من المعاني؛ لئلا يقع في مخالفة ما أجمعوا عليه، وهذا الأمر دالّ على مكانة الإجماع في التفسير، إذْ هو من الشروط التي لا ينبغي أن يجهلها المفسِّر، والجاهل بالإجماعات التفسيرية مُوقِعٌ به جهلُهُ بها في الخطأ والشذوذ.

٤- ما اهتمام المفسِّرين بالإجماع إلا دليل لِما للإجماع من مكانة في التفسير، وقدوتهم في هذا الاهتمام إمامُهم الطبري؛ فقد أكثرَ من إيرادها وأعمَلَها في البيان والاستدلال والاعتراض والمناقشة.

٥- بالإجماع يُحمى جناب التفسير من الأقوال الشاذة والمنكرة، ويُنزَّه كلام الله من حمله عليها، فتُردّ به هذه الأقوال وتُبطل.

٦- يُعَدّ الإجماع سدًّا منيعًا لمن أراد أن يلوي أعناق النصوص ويحملها على غير ما أراده الله؛ إذْ بالإجماع لا يقوم لقوله مكانة ولا يُعتبر له اعتبار.

٧- القرآن الكريم حَوى علومًا شرعية متنوعة، والإجماعات التفسيرية تتنوّع موضوعاتها بتنوّع ما في القرآن من العلوم؛ فإجماعات في العقائد، وإجماعات في الأحكام التكليفية، وإجماعات في المعاني، وهذا التنوّع أحد دلالات مكانة الإجماع في التفسير.

٨- للإجماعات التفسيرية آثار متعدّدة -يأتي تفصيلها في المباحث القادمة- وهذه الآثار دالّة على مكانة الإجماع في التفسير وأهميته.

هذا توضيح لمكانة الإجماعات التفسيرية، ولا يعني هذا أنّ كلّ إجماع في التفسير نال جميع ما ذكرتُ من المكانة، بل إنها في المكانة مختلفة، وذلك راجع إمّا لموضوع الإجماع؛ فهناك إجماعات تفسيرية متعلّقة بالعقائد، وإجماعات تفسيرية متعلّقة بالأحكام التكليفية، وإجماعات تفسيرية لها أثر في المعنى، وإجماعات تفسيرية ليس لها أثر في المعنى؛ كبعض الإجماعات في تعيين المبهمات، فهذا التنوّع سبب في تفاوت مكانة الإجماعات التفسيرية.

وقد يرجع سبب تفاوت مكانة الإجماعات التفسيرية إلى المجمِعين، فما أجمع عليه السَّلَف أقوى مما أجمع عليه مَن بعدهم، وأقوى منهما ما أجمع عليه السَّلَف ومَن بعدهم جميعًا.

كما أنّ من أسباب تفاوت مكانة الإجماعات التفسيرية وضوح ما أُجمع عليه وعدم تصوّر وقوع خلاف فيه، فما وَضُح معناه وكان غير مُتصوّر فيه الاختلاف لم يكن بمكانة ما تُصوّر فيه الاختلاف؛ إذْ إن

أهمية الثاني والحاجة إليه مقدّمة على الأول، وما لم يتصوّر فيه الاختلاف مثاله ما يُحكى من بعض الإجماعات في تحرير محلّ النزاع، وبعض الإجماعات التي تساق للاستدلال والمحاجة.

مدى وجود الإجماع في التفسير

يظهر أنّ أكثر الإجماعات المحكية في العلوم الشرعية هي الإجماعات الفقهيّة، ولم تكن الإجماعات المحكية في التفسير مثلها كثرة، ولا يعني هذا قلّة المتفق على معناه من معاني آيات القرآن الكريم، والدليل على هذا:

أولًا: أنّ المفسّرين يحكون الإجماع عندما تدعو الحاجة لذلك، ولم يحكوا الإجماع عند كلّ موضع اتُّفق على معناه، فليس كلّ موضع اتُّفق على معناه، حُكي فيه الإجماع، ولهذا أمثلة كثيرة.

ثانيًا: تعرّض المفسِّرون لتفسير ما احتاج إلى البيان والتفسير، ولم يتعرّضوا لواضح المعنى، وواضح المعنى يشكّل قدرًا كبيرًا من آيات القرآن، وفي ذلك يقول الزركشي: «ينقسم القرآن العظيم إلى: ما هو بَيِّنٌ بنفسه بلفظ لا يحتاج إلى بيان منه ولا من غيره، وهو كثير»، وواضح المعنى الأصلُ فيه أنه محلّ إجماع، وإذا كان ذلك كذلك، تبيّن قدر المُجْمَع على معناه من آيات القرآن الكريم.

بناء على ما سبق يتلخص الآتي:

-حكاية الإجماع في التفسير أقلّ من حكاية الإجماع في الفقه.

- القدر المُجْمَع عليه من معاني آيات القرآن الكريم أكثر من القَدْر المختلف فيه، وإن لم يُحْكَ فيه الإجماع.

- في حال مقارنة مواضع حكاية المفسّرين للإجماع في التفسير ومواضع حكايتهم للاختلاف في التفسير، فالأكثر هو حكايتهم الاختلاف لا الإجماع، ولا يعني هذا أنّ المواضع المختلَف فيها من معاني آيات القرآن الكريم أكثر من المواضع المُجْمَع عليها كما بيّنتُ آنفًا.